أجاثا كريستي

الطّابور الخامس

دار النجمة للنشر والتوزيع

الطّابور الخَامس

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

الطّابور الخَامِس

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

الفصل الأوّل

نحن في ربيع عام ١٩٤٠.

رفعَت السيدة برسفورد وجهها إلى زوجها حين دخل الغرفة وقالت: لست أدري سبباً يجعلك متجهّم الوجه على هذه الصورة يا عزيزي تومي، ماذا هناك؟

- لم أجد عملاً حتى الآن، سواء في الجيش أو في البحرية أو الطيران أو حتى وزارة الخارجية، حتى أصبحت لا أطيق سماع تلك الإجابات. رجل في السادسة والأربعين يعامَل كأنما لا قدرة له على العمل؟ هذا أمر لا يطاق!

- إنها نفس المسألة بالنسبة لي؛ فهُم لا يريدون ممرّضات في مثل سنّي بل يأخذون فتيات لم يرَين جرحاً في حياتهن. لقد نسوا أنني عملت من عام ١٩١٥ إلى عام ١٩١٨، كما أنني عملت في قيادة السيارات أيضاً.

- يعزّيني أن ابنتنا ديبورا قد وجدَت عملاً فيها وكذلك ابننا ديريك، ولو أن المساعدة المالية التي يمدّني بها تؤلم نفسي وتشعرني أنني أصبحت رجلاً مُسِنّاً. هل أصبحنا لا فائدة

ترجى منا؟ أنا أفكّر أحياناً أن القطار قد فاتنا.

فظهرَت أمارات الغضب على وجه توبنس وتركَت كُرة الصوف تتدحرج من حِجْرها ثم قالت: هل فاتنا القطار حقيقة؟ ربّاه!

- ربما، ولكن يعزّيني أننا كنا موضع اهتمام الجميع في وقت من الأوقات، فقد اختطفني الألمان كما تذكرين، فاحتَلْتُ على النجاة بمعجزة، كما تتبّعت آثار ذلك المجرم الخطير حتى قُبض عليه، وتلك الفتاة التي أنقذنا حياتها، وأوراق المعاهدة السرّية الهامة. لقد شكرَتنا الأمّة والدولة حينذاك.

- والآن أصبح السيد والسيدة برسفورد لا يحتاج إلى مجهوداتهما أحد.

- لا فائدة من هذا الحزن يا عزيزتي؛ فهو يؤذيك.

- لقد أخلف السيد كارتر ظننا فيه.

- لا تنسي أنه كتب خطاباً في غاية الرقّة.

- لم يكن فيه ما يبعث على الأمل.

- لست أظن أنه يستطيع شيئاً في هذه الأيام، ثم إنه يقيم في اسكتلندا الآن ليُسَلّي نفسه بصيد السمك. لقد أصبح هو الآخر مُسِنّاً.

- ربما يحتاجون إلينا في عمل بإدارة الاستعلامات.

- لا أظن؛ فأعصابنا لم تَعُدْ تحتمل.

ورنّ جرس باب الشقة فقامت توبنس وفتحت الباب، فقال القادم: السيدة برسفورد؟

- نعم.

- أنا غرانت أحد أصدقاء اللورد أيسامتون، وقد طلب مني زيارتكما أنت وزوجك.

- مرحباً، تفضّل بالدخول.

وسارت أمامه إلى حجرة الجلوس ثم قالت: هذا زوجي، وهذا السيد غرانت. إنه صديق السيد كارتر، أعني اللورد أيسامتون.

وكان اسم السيد كارتر رئيس إدارة الاستعلامات السابق أسهل نطقاً من لقبه الجديد اللورد أيسامتون. وبعد أن تبادل الجميع التحيّة قدّمت توبنس أقداح الشاي للرجلين، وكان السيد غرانت رجلاً لطيف الحديث قال بعد فترة: سمعت يا برسفورد أنك تبحث عن عمل، أليس كذلك؟

- بلى، هو كذلك. هل تعني...؟

- لا؛ فالأعمال يحسُن أن تترَك للشباب، أو على الأقلّ لأولئك الذين تمرّسوا فيها عدّة سنوات دون انقطاع، إنما كل ما أعرضه عليك الآن هو عمل في أحد المكاتب، سوف تقوم بتخريم أوراق وحفظها في ملفاتها وما شابه ذلك.

- ماذا؟

- شيء أفضل من لا شيء على كل حال، ومع ذلك أرجو أن تزورني في مكتبي بالغرفة رقم ٢٢ بوزارة المهمّات الحربية، وهناك نستطيع أن نتفاهم.

ورنّ الهاتف فأسرعَت توبنس ورفعت السمّاعة قائلة: مرحباً... نعم... ماذا؟

وسُمع من الطرف الآخر صوت يتكلّم بجزع وحُزن فتغيّر وجه توبنس وقالت: متى؟ نعم يا عزيزتي، طبعاً. سأحضر إليك حالاً.

ووضعَت السماعة ثم قالت لزوجها: تومي، هذه مورين.

- لقد توقّعت ذلك؛ فقد عرفت صوتها.

- آسفة يا سيد غرانت، إنها صديقتي وقد الْتوَت قدمها وليس معها من يُعنَى بها ويجب أن أذهب إليها. أرجو أن تلتمس لي العذر في الانسحاب.

- طبعاً يا سيدة برسفورد، أنا أقدّر ذلك.

فابتسمَت له مسلّمة ثم تناولت معطفها وخرجَت من الحجرة، ثم سمع الرجلان باب الغرفة يغلَق بعنف.

وصبّ تومي قدحاً من الشاي لضيفه فتناوله، وبعد لحظة قال: هل تعلم أن خروج زوجتك المفاجئ قد خدمنا؛ فهو

سيوفّر الوقت. لقد اقترح أيسامتون اسمك وقال لنا إنك الوحيد الذي يصلح لتلك المهمّة.

- أية مهمة؟

- طبعاً أنت تفهم أن ما سأقوله لك سريّ جداً، حتى زوجتك يجب ألاّ تعلم عنه أيّ شيء.

- لا بأس ما دمتم تريدون ذلك، ولكنني دائماً أشترك مع زوجتي.

- أنا أعلم ذلك ولكن هذه المهمّة بالذات لك وحدك.

- وهو كذلك.

- وكما سبق أن قلت لك، ستزعم أمام الجميع أنك كُلِّفتَ بعمل كتابي في جهة ما باسكتلندا، جهة محظور عليك ذكر اسمها ولا يمكن أن ترافقك زوجتك إليها، ولكنك في الواقع ستذهب لمكان آخر. لا شك أنك قرأتَ في الصحف عن الطابور الخامس وتدرك ماذا يعني هذا التعبير طبعاً.

- العدوّ الذي بيننا.

- بالضبط. بالمناسبة أحبّ أن أقول لك يا برسفورد إن هذه الحرب بدأت وحالة الشعب النفسية متأثّرة بنوع من التفاؤل المصطنَع، وأنا لا أقصد أولئك الذين يدركون الأمور على حقيقتها مثلنا طبعاً؛ فنحن نفهم بلا شك ما وراءنا وما أمامنا، كقدرة العدوّ العامة وقوّاته الجوّية وتصميمه على القتال

والرابطة الجبّارة بين كل عناصر قوّاته الحربية، ولكنني أعني بالشعب رجل الشارع الذي تأثّر بما سمع أو ربما يريد أن يسمع من أن ألمانيا سوف تتصدّع عما قريب وأنها على أبواب الثورة وأن عُدّتها الحربية قد صُنعَت من القصدير وأن جنودها يتساقطون من فرط الجوع... إلى غير ذلك، هذا في حين أن الواقع يجري على العكس تماماً.

- هذا ما يدركه كل عاقل.

- بالضبط، ولا تنسَ أننا بدأنا في أوائل الحرب بلا نظام يجمع شعبنا، كما كانت استعداداتنا في غاية النقص، ولعل ذلك يرجع إلى أننا لم نكن نرغب في الحرب، فلم ننظر إلى شتّى الاحتمالات بشكل جدّي ولم نُحسِن الاستعداد لمجابهتها، وإن كنا بعد مرور أكثر من سنة قد صحّحنا تلك الأوضاع إلى حدّ كبير، فوضعنا كلاً في مكانه الذي يناسبه وأصبحنا نوجّه الدفّة كما يجب أن توجَّه. ويمكننا أن نكسب الحرب -وهذا لا شك فيه- إذا لم نرتكب الخطأ الأوّل، ونحن لا ننظر إلى الخسارة كنتيجة لأعمال العدوّ الظاهرة كقوّة قاذفات القنابل ولا في تسلّط ألمانيا الشامل على البلاد التي تستغلُّها لمصالحها الاقتصادية واستعمال الألمان تلك البلاد كمراكز للقفز علينا، لا هذا ولا ذاك، ولكن الخطر الذي نخشاه يأتي من الداخل، من قصّة طروادة والحصان الخشبي الذي أُدخل إلى أسوارها. تستطيع أن تسمّيه الطابور الخامس إذا أردتَ، وهو يتألّف من نساء ورجال يشغل بعضهم مراكز عالية والبعض الآخر مراكز من كل لون، ولكنهم جميعاً

يؤمنون بالعقيدة النازية ويعملون جاهدين على إحلالها محلّ وسائلنا البسيطة في الحياة الديمقراطية، وأهمّ من هذا كلّه أننا لا نعرف مَن هؤلاء.

- ولكن بكل تأكيد...

- نستطيع أن نصل إلى العصافير الصغيرة؛ فهذا من السهولة بمكان، ولكن العقْبان والنسور هي التي تهمّنا، فهناك اثنان على الأقل يشغلان وظائف كبرى في البحرية، وأكاد أؤكّد بأن أحدهما يعمل في مكتب الجنرال «ج»، كما نعلم أن ثلاثة أو أكثر في أهمّ مراكز سلاح الطيران، وأن اثنين على الأقلّ في إدارة المخابرات يطّلعان باستمرار على قرارات مجلس الوزراء السرّية. نحن نعلم كل هذا لأن الطريقة التي تتسرّب بها أخبارنا إلى العدوّ تدلّ عليه.

- ولكني لا أعرف أحداً من هؤلاء.

- بالضبط، كما أنه لا يعرفك أحد منهم، وهذا هو ما يهمّنا؛ فهؤلاء القوم ذوي المراكز العالية يعرفون رجالنا جميعاً، وقد أرهقَتنا محاولات كشفهم أو حتى تضليلهم حتى وصلنا إلى حالة من اليأس لا نُحسَد عليها. فذهبنا إلى أيسامتون نستشيره، ورغم أنه لا يُعتبر من رجالنا نظراً لمرضه إلا أنه يعتبر ألمع ذهن عرفناه، ففكّر فيك وقال إن عشرين سنة قد مضَت منذ تركتَ العمل في الإدارة وانقطعت صلتك بها، كما أن شبهك لا يعرفه أحد، فما رأيك؟

- أقبَلُ طبعاً، ولكن لا أدري كيف يمكن أن أفيدكم.

- يا عزيزي برسفورد، تفكير الهواة وتصرّفاتهم هو ما نريد؛ فالأمور تتعقّد بالنسبة إلى المحترف، ثم لا يخفى عليك أنك ستحلّ محلّ أقدر رجالنا.

- ماذا؟

- نعم؛ فقد توفّي فاركوهار المسكين في مستشفى بريدجت يوم الثلاثاء الماضي بصدمة سيارة نقل كبيرة، وعاش بضع ساعات بعد الصدمة. وقد يُخيّل للعابر أنها حادثة طريق ولكنها ليست كذلك.

- أمتأكّد أنت؟

- نعم، وهذا ما يجعلنا نعتقد أنه كان وراء أثر هام. وقد بقي فاقد الوعي بعد الصدمة، وقبل الوفاة بلحظات حاول أن يقول شيئاً، وكان كل ما سمعناه منه هذه العبارة: «ن. م. سونغ سوزي».

- لا أعتقد أن في هذا ما ينير السبيل.

- قد يكون فيه أكثر مما تظنّ لأن «ن» أو «م» هو رمز سمعناه قبل تلك اللحظة، وهو ينبئ عن اثنين من أهمّ وكلاء الألمان، وقد عرفنا بعض الشيء عن نشاطهما في البلاد الأخرى ولكن ليس لدينا عنهما معلومات كثيرة، ولكننا نعلم أن مهمّتهما هي الإشراف على تكوين الطوابير الخامسة في البلاد المختلفة، كما يقومان بمهمّة ضابط الاتصال بين ألمانيا وبين الطابور الخامس في أيّ بلد من البلاد المختلفة.

وأغلب الظن أن «ن» رجل وأن «م» سيدة وأنهما أعظم مَن وَثِق بهم هتلر بين مبعوثيه، وقد استطعنا الحصول في بداية الحرب على صورة برقية أُرسلَت من برخستغادن جاء فيها: أرى تعيين «ن» و«م» لإنكلترا، على أن يُمنَحا كل السلطات.

- وماذا عن فاركوهار؟

- أظن أنه تتبّع آثار أحدهما أو كليهما ولكن لسوء الحظ لم نعرف أحداً منهما، أمّا عن كلمة سونغ سوزي فأظن أنها محرّفة نظراً لما نعلمه من عدم تمكّن فاركوهار من اللغة الفرنسية، وقد وجدنا في أحد جيوبه تذكرة عودة إلى مقاطعة ليهامتن على الساحل الجنوبي، وفي تلك المنطقة كثير من الاستراحات والفنادق الخاصة، وبعد التحرّي وجدنا أن أحد تلك الاستراحات يسمّى سان سوسي.

- هكذا «سان سوسي» قد حُرِّفَت إلى «سونغ سوزي»، لقد فهمت، وعليّ أن أذهب إلى هناك وأرى ماذا أستطيع أن أعمل.

- تماماً.

- ولكن المسألة فيما أرى غير واضحة المعالم؛ فأنا لا أكاد أعلم ما الذي أبحث عنه.

- وأنا شخصياً لا أعلمه، ولكن عليك أن تجده، وعسى أن يساعدك الحظ.

- حدّثني عن ذلك المكان، أعني سان سوسي.

- ربما كان كوخاً وربما كان شيئاً آخر، ولعل فاركوهار كان يفكّر في أمر أبعد من كل ما نفكّر فيه؛ فالمسألة لا تعدو أن تكون مجرّد تخمين.

- وماذا عن ليهامتن نفسها؟

- هي كأيّ من مثيلاتها، مجموعات من الأكواخ والعشش والمنازل الصغيرة تقيم فيها سيّدات مسنّات وضبّاط متقاعدون وعوانس طاهرات وروّاد غامضون، وربما بعض الجواسيس وبعض الأجانب. هي تبدو كحقيبة الطبّاخ.

- وهل «ن» أو «م» بين كل هؤلاء؟

- ليس ذلك مما يمكن الجزم به، فربما وجدتَ أحد أعوانهما، ولكنني أرجّح أن يكون «ن» أو «م» هناك؛ فالمكان لا يرقى إليه الشك، بيت منعزل في بقعة ساحلية.

- أليس لديك فكرة عما إذا كان الشخص الذي سأبحث عنه رجلاً أو امرأة؟

- للأسف ليست عندي أدنى فكرة، وأتمنّى لك حظاً سعيداً يا برسفورد. والآن إلى التفصيلات.

* * *

عادت توبنس بعد نصف الساعة فوجدَت زوجها وحيداً يصفر بشفتَيه وقد بدت عليه أمارات الشكّ، فقال لها: حسناً، لقد حصلت على عمل مكتبيّ في اسكتلندا، وهو حفظ

مستندات وما شابه. إنه لا يبدو عملاً مثيراً.

- لكلينا أم لك وحدك؟

- أخشى أن يكون لي وحدي.

- اللعنة! كيف يعاملنا السيد كارتر بهذه الوسائل؟

- اختلاط الجنسين غير مسموح به في مثل هذه الأعمال يا توبنس، وإلاّ صَعُب على الموظّفين تركيز تفكيرهم في العمل.

- من الواضح أنه عمل من تلك الأعمال التي ترهق الأعصاب كالذي التي تقوم به ديبورا ابنتي. أرجو ألاّ ترهق نفسك يا تومي بقدر الإمكان كي لا تحطّم أعصابك.

- لست من هؤلاء كما تعلمين.

- أرجو ذلك، ولو أنني أعتقد أنك عُرضة لما أقول. هل يمكن أن آتي معك، لا كزميلة في العمل وإنما كزوجة فقط تُعِدّ لك طعام العشاء و...؟

- أنا آسف، وكم يؤلمني أن أتركك يا عزيزتي! على أيّ حال تستطيعين أن تشغلي نفسك بغزل الصوف.

- غزل الصوف؟

وقذفَت بالكرة الصوفية والإبرة إلى الأرض ثم استطردت قائلة: أنا أكره الصوف الكاكي والأزرق وكل الألوان التي

يرتدونها في هذه الحرب.

وبعد قليل عادت توبنس إلى حالتها العادية وقالت إنها تستطيع أن تجد عملاً بإحدى جماعات الإسعاف.

* * *

بعد ثلاثة أيام رحل تومي إلى أبردين وودّعته زوجته توبنس على المحطة متجلّدة، وأحسّ بعد أن تحرّك القطار وتضاءل الناس أنه افتقدها، لكنه تمالك نفسه؛ فالأوامر هي الأوامر.

وبعد وصوله إلى اسكتلندا سافر في اليوم التالي إلى مانشستر، وفي اليوم الثالث وصل به القطار إلى ليهامتن فتوجّه من فوره إلى الفندق الرئيسي، وفي اليوم التالي طاف بجميع الاستراحات والفنادق الخاصة يسأل عن غرفة خالية وعن أسعار الإقامة لمدّة طويلة. وكان سان سوسي عبارة عن منزل أحمر على الطراز الفيكتوري أُقيمَ على سفح أحد التلال تطلّ نوافذه العليا على منظر البحر الجميل، ورغم أن أثاثه كان جميلاً إلا أنه كان قديماً، وقد قابل تومي صاحبته السيدة برينا، وهي سيدة في منتصف العمر تعلو رأسها هالة مخيفة من الشعر الأسوَد المجعّد، وقد لوّثَت وجهها ببعض المساحيق وبدت أسنانها البيضاء اللامعة مرعِبة خلال ابتسامتها المصطنعة.

وفي حديثه معها ذكر اسم الآنسة ميدوز ابنة عمّه الكبرى التي أقامَت في سان سوسي منذ سنتين، فتذكّرت السيدة برينا

ابنة العمّ تلك وتحدثَت عن ظرفها، فأجابها تومي بحرص على تعليقاتها عن قريبته المزعومة رغم أنه كان يعلم أن إدارة المخابرات كانت على ثقة من المعلومات التي زوّدَته بها عن الآنسة ميدوز.

ولما سُئل عن أحوال قريبته قال إنها توفّيَت، فأظهرت السيدة برينا أسفها وألمها، ثم عرضَت على تومي غرفة قالت إنها تناسبه كل المناسبة؛ فهي تطلّ على منظر البحر اللطيف، ثم حدّدت لها أجراً أسبوعياً نظير الإقامة والأكل فأظهر تومي فزعه من ارتفاع السعر، ولكنها شرحت له أسباب ذلك فأجابها أنّ دخله قد نقص كثيراً عن ذي قبل، ثم تطرّق الحديث عن هتلر فقال تومي: يجب شنق ذلك الإنسان؛ فهو رجل مجنون. نعم، مجنون ولا شك.

فوافقته السيدة برينا على رأيه وقالت إنها تجد مصاعب جمّة في الحصول على موادّ التموين من لحم وخبز وغيرها، كما أن مأكولات كثيرة قد اختفت من الأسواق، وغير ذلك. لكن ما دام السيد ميدوز ابنَ عمّ صديقتها الراحلة فهي ستنقص المبلغ نصف جنيه، فطلب تومي إمهاله يوماً يفكّر فيما إذا كان دخله يحتمل ذلك المبلغ، ثم رافقته السيدة برينا حتى الباب الخارجي وشيّعته بكل ما تستطيع من تحيّات ومجاملات.

وساءل تومي نفسه قائلاً: ماذا تكون جنسية تلك السيدة؟ لا يمكن أن تكون إنكليزية؛ فالاسم إمّا أن يكون إسبانياً أو برتغالياً، ولكن إحدى هاتين الجنسيّتين هي جنسية الزوج، أمّا هي فربما تكون أيرلندية.

وأخيراً صمّم على أن ينتقل في اليوم التالي إلى سان سوسي باعتباره السيد ميدوز. وفي الساعة السادسة من مساء اليوم التالي وصل إلى منزل سان سوسي، فقابلَته السيدة برينا في البهو الخارجي بالترحاب، ثم أصدرَت عدّة أوامر تتعلّق بحقائبه إلى خادمة تظهر عليها أمارات الغباء، ثم قادته إلى غرفة الجلوس العامّة وهي تقول: أنا أقوم بتقديم نزلائي بعضهم إلى بعض. هذا هو السيد ميدوز نزيلنا الجديد، وهذه السيدة أوروك، الميجور بلتشلي، السيد فون دينيم، الآنسة منتون، السيدة بلنكنسوب.

وكان تومي ينحني بأدب عند تقديم كلّ من الحاضرين إليه، ورأى في السيدة أوروك سيدة بدينة قد خطّ شاربها بشكل مثير للضحك، أمّا الميجور بلتشلي فقد فحص تومي بنظرة كأنما يثمّن الضيف الجديد ثم أحنى رأسه له، أمّا السيد فون دينيم فكان شاباً صلب العود أشقر الشعر أزرق العينين، فوقف على قدميه ثم انحنى كأنما يؤدّي التحية العسكرية، أمّا الآنسة منتون فكانت سيدة مسنّة تعبث بإبرة الصوف وقد ابتسمَت وهمهمَت ببعض ألفاظ التحية، أما السيدة بلنكنسوب فكانت تشغل يديها بأدوات حياكة الصوف هي الأخرى، وما إن رفعت رأسها لتحية القادم حتى توقّف تنفّس تومي ودارت به الغرفة؛ فقد كانت السيدة بلنكنسوب هي توبنس زوجته!

هذا مستحيل ولا يمكن تصديقه! ولكنها قابلته بعينين فيهما الأدب والتحفّظ المتبادل بين الأغراب وهزّت رأسها.

* * *

الفصل الثاني

لم يدرِ تومي كيف قضى ليلته الأولى في سان سوسي؛ فقد كان من الصعب عليه أن يوجّه نظراته ناحية السيدة بلنكنسوب، وفي اليوم التالي ظهر في ساعة الغداء ثلاثة آخرون في المنزل، وهم السيد والسيدة كايلي وسيدة شابة تُدعى السيدة سبروت اصطحبَت طفلتها الصغيرة معها، ودائماً كان يبدو عليها عدم رضاها عن إقامتها الإجبارية مع تلك الطفلة في سان سوسي. وتصادف أن جلسَت على المائدة الكبرى إلى جوار تومي فأخذَت ترمقه بعينيها من وقت إلى آخر ثم قالت مستفسرة: ألا تظن أن الحالة أصبحَت أكثر أمناً في هذين اليومين؟

وقبل أن يجيب تومي ردّت السيدة التي تجلس إلى يساره قائلة: لا أعتقد؛ فقد سمعت أن هتلر ينوي الهجوم على بريطانيا في الأيام القليلة القادمة، كما سمعت أن الهجوم سيكون بغاز من نوع جديد و...

فقاطعها الميجور بلتشلي قائلاً: ما أكثر الهراء الذي يتحدّثون به عن الغازات! إنهم لن يضيعوا وقتهم ليهاجمونا

بالغازات بل سيكون الهجوم بالقنابل المدمّرة والحارقة، لقد جرّبوها في إسبانيا.

وهكذا بدأ المستمعون يتناقشون وكلٌ يدلي برأيه، ثم سمع تومي صوت توبنس الحاد يقول: ابني دوغلاس يقول في أحد خطاباته لي...

فعجب تومي وتساءل في نفسه: ترى لماذا اختارت اسم دوغلاس لولدها؟!

وبعد تناول الغداء انصرف الجميع إلى غرفة الاستراحة، وبدأت السيدات يقتلن الوقت بحياكة الصوف، كما اضطُرّ تومي إلى أن يستمع إلى حديث الميجور بلتشلي عن مغامرته في الحرب الأولى في الجبهة الغربية، وبعد هنيهة انصرف الشابّ الأشقر بعد أن انحنى لجميع من كانوا في الغرفة فقال الميجور بلتشلي لتومي: هذا الشاب الذي خرج توّاً أحد اللاجئين؛ فقد خرج من ألمانيا هارباً قبل إعلان الحرب بشهر واحد.

- هل هو ألماني؟

- نعم، وقد قُتل والده لأنه انتقد النظام النازي، وله أخوان في المعتقلات هناك. لقد خرج في الوقت المناسب!

* * *

في الصباح التالي خرج تومي مبكّراً وأخذ يتمشّى ذهاباً وجيئة في الحديقة المحيطة بالمنزل حتى لمح شخصاً آتياً من الناحية المقبلة فرفع قبّعته محيّياً ثم قال: صباح الخير يا سيدة...

بلنكنسوب فيما أذكر!

ولما لم يكن هناك من يستمع إلى الحديث أجابت توبنس متهكّمة: ومَن أنت؟ الدكتور ليفغستون؟

- كيف أتيت إلى هنا؟ توبنس، هذه معجزة!

- ليس في الأمر معجزة. كل ما هنالك أنني أعملت ذهني بأبسط الوسائل حتى أعطيكما أنت والسيد غرانت درساً لا تنسيانه أبداً.

- وكيف حدث ذلك؟

- الأمر في غاية البساطة، فعندما كان غرانت يتحدّث معك وذكر اسم كارتر استنتجت أن العمل الذي سيُعرَض عليك لا يمكن أن يكون عملاً مكتبياً عادياً وشعرت أنه من نوع لن أشترك فيه، ولما كان هذا ضدّ رغبتي فقد انتهزت فرصة خروجي لإحضار الشاي لكما فنزلت إلى شقّة جارتنا السيدة براون، ومن هناك طلبت صديقتي مورين هاتفياً ورجوتها أن تطلبني بعد لحظات وأفهمتها ماذا تقول، وقد نفّذَت تعليماتي حرفياً ومثّلت دوري بعد ذلك ببراعة إذ انسحبت لنجدة صديقتي كما خُيّل إليكما، وأغلقت باب الشقة بعنف حتى تعتقدا أنني خرجت في حين أنني تسلّلت إلى غرفة النوم وأخذت أُنصت إلى حديثكما من خلف الباب.

- لا ذنب لي فيما حدث؛ فالسيد غرانت وحده هو المسؤول.

– لم يكن جديراً بالسيد كارتر أن يعاملني هكذا. إن إدارة المباحث تغيّرت كثيراً عما كانت في أيامنا.

– لا شكّ أنها ستعود كما كانت ما دمنا قد عاودنا نشاطنا، ولكن لماذا اخترت اسم «بلنكنسوب» هذا؟

– ولِمَ لا؟

– غريب أن يقع اختيارك على هذا الاسم بالذات.

– حرف الباء في بلنكنسوب يقوم مقام حرف الباء في برسفورد أيها الغبي، وهذا الحرف مطرّز على جميع ملابسي الداخلية. وأنت، ما الذي دعاك إلى اختيار اسم ميدو"؟ هذا هو الغباء المعهود فيما أظنّ.

– أنا لم أختَرْه بل اختير لي، والسيد ميدوز الحقيقي رجل له ماضي ناصع حفظته عن ظهر قلب.

– هذا عظيم، وهل أنت أعزب أم متزوّج؟

– أنا أرمل توُفّيَت زوجتي منذ عشر سنوات في سنغافورة. ولكن إذا افترضنا أن أحداً سعى للكشف عن حقيقة السيد بلنكنسوب المزعوم هذا...

– أولادي ليسوا من بلنكنسوب؛ فهو زوجي الثاني، أمّا زوجي الأوّل فاسمه هيل، وأنت تجد ثلاث صفحات كاملة في دليل الهواتف تشترك كلّها في اسم هيل.

– إنها نفس المسألة دائماً؛ تحبّين تعقيد الأمور... زوجان

وثلاثة أبناء! أنا أعتقد أنك ستناقضين نفسك بنفسك إذا سُئلت عن بعض التفصيلات.

- أبداً، بل على العكس أنا سأنتفع بهؤلاء الأبناء. ثم لا تنسَ أنني حرّة لا أتلقّى أيّ أوامر من أحد، وقد اشتركت في هذا العمل لأسلّي نفسي، وسأُسلّيها.

- يبدو أن الأمر بالنسبة لك مجرّد تسلية. هذه مهزلة!

- لماذا تقول ذلك؟

- حسناً، لقد أقمت بسان سوسي مدّة أطول من إقامتي أنا بها، فهل ترين في كل من كانوا معنا بالأمس مَن يصحّ اعتباره من عملاء الأعداء؟

- الأمر صعب التصديق، لكن هناك الشاب الأشقر.

- أتقصدين كارل فون دينيم؟ إنه أحد اللاجئين، والشرطة تتحرّى عنهم جميعاً.

- ومع ذلك فهو يَصلُح. ألا ترى أنه جذّاب؟

- أتقصدين أن الفتيات سيتعلّقن به ويُدلين إليه بأخبار؟

- كفى هذراً يا تومي، فنحن نتكلّم جدّياً الآن.

- أنا جادّ تماماً فيما أقول، وأظننا نجري وراء سراب.

- ما رأيكَ في السيدة برينا نفسها؟

- أجل، السيدة برينا موضع نظر وينبغي دراستها.

- وماذا عنّا؟ أعني كيف نتعاون؟

- لا يجب أن يرانا أحد سوياً.

- كما يجب أن يتجاهل بعضنا البعض فلا يظهر أن ثمة علاقات سابقة بيننا. وما أريده هو تنظيم مبدأ العمل، وأنا أقترح الملاحقة.

- الملاحقة! ماذا تعنين؟

- أن ألاحقكَ في كل مكان، أمّا أنتَ فتبذل جهودكَ في التخلّص مني، ولكنك كجميع الرجال لا تنجح دائماً في الهروب، ولا تنسَ أنني تزوّجت مرّتين وفي حاجة إلى زوج ثالث، وعليك أن تمثّل دور الأرمل المتبوع، فإذا رآنا أحد سوياً فلن يقول سوى: انظُر، السيد ميدوز المسكين... لعل الصنارة قد شبكت!

وفجأة أمسك تومي بذراعها وقال هامساً: انظري، انظري أمامك مباشرة.

- هذا كارل فون دينيم. مَن هذه الفتاة التي انهمك في الحديث معها هكذا؟

- إنها فتاة جميلة جداً على أية حال.

وراقبت توبنس الشابّين فرأَت وجه الفتاة الأسمر وهي تتحدّث بحماسة إلى كارل الذي كان منصتاً إلى حديثها بشغف واضح، ثم قالت توبنس: يحسن بنا أن نفترق الآن.

وبدأ تومي يسير في اتجاه مضادّ حتى قابل الميجور بلتشلي الذي رمقه بنظرة فاحصة ثم قال: صباح الخير. أرى أنك مثلي ممن يبكّرون في اليقظة.

ثم دار بينهما حديث طويل قصّ فيه تومي على الميجور كيف أنه قابل السيدة بلنكنسوب فعلم منها أنها أرملة بلا زوج، فحذّره الآخر من حبائل الأرامل، ثم اتجها سوياً إلى سان سوسي لتناول طعام الإفطار. وفي الوقت نفسه سارت توبنس في طريقها ومرّت بالقرب من الزاوية التي اختلى فيها الشابان، وكانت الفتاة هي التي تتحدّث فسمعتها توبنس تقول: ولكن يجب أن تكون على حذر يا كارل؛ فأقلّ شكّ...

ولم تستطع توبنس أن تقف لتستمع إلى باقي الحديث، فسارت إلى نهاية الممرّ ثم عادت لتسمع من جديد.

- حقير ذلك الجنس الإنكليزي البغيض.

فارتفع حاجبا السيدة بلنكنسوب وقالت لنفسها: السيد كارل فون دينيم لاجئ ألماني آوَته بريطانيا لهربه من الوحشية النازية فلم يكن جديراً به أن يتفوّه بمثل هذه الألفاظ.

ثم عادت توبنس من جديد لتمرّ بجوارهما ولكنهما كانا قد افترقا؛ فقد اتجهت الفتاة إلى ناحية البحر في حين سار كارل فون دينيم في الاتجاه المضادّ، فقابل توبنس فوقف وضمّ قدمَيه بطريقة عسكرية ثم انحنى لها، فقالت: صباح الخير يا سيد فون دينيم، الجوّ جميل هذا الصباح.

- أجل، الطقس بديع حقاً.

- لقد اجتذبني للخروج وليس من عادتي اليقظة المبكّرة، أو على الأقلّ الخروج قبل تناول طعام الإفطار، ولكنني لم أَنَم جيداً بالأمس؛ فالمرء لا يتمتع بالنوم في مكان جديد عليه ولا بدّ أن يمرّ بعض الوقت حتى يألف المكان. وقد أفدت فعلاً من السير هذا الصباح وتفتّحَت شهيّتي للفطور. أذاهب أنت إلى سان سوسي الآن؟

- إذا سمحت رافقتك إلى هناك.

ثم سار إلى جانبها فقالت توبنس: هل خرجتَ أنت أيضاً رغبة في فتح الشهية؟

- لا؛ فقد تناولت طعام إفطاري وأنا في طريقي إلى العمل. أنا كيميائي.

وبعد لحظة سكون استطرد يقول: لقد تركت بلادي هرباً من الاضطهاد النازي، وليس لديّ مال كثير كما أنني بلا صديق، ولذلك أقوم بالعمل النافع الوحيد الذي أجيده، كما أن أخويّ في المعتقلات التي توفّي والدي في أحدها، أمّا والدتي فقد ماتت من الحزن والرعب.

ثم مرّ بهما رجلان سمعت توبنس أحدهما يقول: أراهنكَ أن هذا الشاب ألماني؟

فلاحظَت توبنس الدماء تتصاعد إلى وجنتيَ كارل فون دينيم، وفجأة فقد السيطرة على أعصابه وظهرَت عواطفه

الحبيسة فجأة فقال: أسمعت؟ هذا ما يقولونه، أنا...

- يا ولدي العزيز، لا تكن غبياً. أنت لا تستطيع أن تملك ناصية الأمور؛ فأنت لاجئ ويجب عليك أن تتحمّل السيئة والحسنة، ولا تنسَ أنك حيّ وحرّ في نفس الوقت ولا تنتظر من رجل الشارع أن يميز بين الألماني الطيّب والألماني الخبيث.

- أنت على حقّ، وحتى أكون ألمانيا طيّباً يجب أن أكون في عملي الآن، فلا تؤاخذيني. طاب صباحك.

ثم انحنى لها تلك الانحناءة التقليدية وانصرف.

* * *

كانت أبواب ردهة سان سوسي مفتوحة فسمعت توبنس وهي تقترب صوت السيدة برينا تقول: لا تنسَ أن تطالبه بالكمّية الأخيرة من الزبد الصناعي. صباح الخير يا سيدة بلنكنسوب، أرى أنك تبكّرين في اليقظة. أقدّم لك ابنتي شيلا. لقد كانت مسافرة ولم تحضر سوى أمس.

فتمتمَت توبنس بألفاظ التحية المعتادة ثم اتجهَت إلى قاعة الطعام، وكانت السيدة سبروت هناك ومعها طفلتها والسيدة أروك فتبادلن جميعاً تحية الصباح. وكانت السيدة سبروت تطعم الطفلة التي ما إن رأت توبنس حتى اتجهَت نحوها بكل حواسّها، فقالت السيدة سبروت لتوبنس: إنها تحبّك، رغم أنها أحياناً تكون في غاية الخجل من الغرباء.

ثم عادت بتي سبروت تصيح بكلمات غير مفهومة، فسألت السيدة أوروك بشغف قائلة: وماذا يا ترى تعني بهذا؟

- إنها لا تنطق الألفاظ جيداً؛ فعُمرها أكثر من سنتين بأيام ولعل أكثر ما تقول لا معنى له، ولو أنها تستطيع أن تقول «ماما»، أليس كذلك يا حبيبتي؟

فعادت بتي بعد أن نظرت إلى أمّها طويلاً تنطق بكلماتها المحرّفة الغريبة، فقالت السيدة أوروك: للأطفال لغتهم الخاصة هي لغة الملائكة الصغار. والآن يا بتي العزيزة قولي: ما... ما.

فنظرَت بتي إلى السيدة أوروك ثم قالت بتأكيد: نا... زير.

ولعل السيدة أوروك العجوز تضايقت من عدم استماع بتي لحديثها، ثم انصرفَت من الحُجرة غاضبة بعد أن رمقت الطفلة بنظرة غيظ، فضحكت الطفلة وكأنما ارتاحت إلى خروج العجوز وأخذت تضرب بالملعقة على منضدة الأكل، فقالت توبنس: ترى ماذا تعني بكلمة "نازير"؟

فأجابت السيدة سبروت: فيما أعتقد هي الكلمة التي تقولها بتي عندما تكون كارهة لشخص ما أو لشيء ما.

وضحكتا، ثم عادت السيدة سبروت تقول: على كل حال أعتقد أن السيدة أوروك لا تظهِر سوى الحنوّ نحو الفتاة،

ولكن يظهر أن طريقتها في ذلك لا تعجِب بتي وأن ذلك الشعر النامي على وجهها ليس مما يسرّ أن تراه.

ثم أخذت بتي تصيح نحو توبنس فقالت السيدة سبروت: لقد ألِفتك يا سيدة بلنكنسوب.

وفي تلك اللحظة فُتح باب الردهة ودخل الميجور بلتشلي وتومي فصاحت توبنس: السيد ميدوز. ليس للغائب نصيب، فلم يبقَ لك من طعام الإفطار إلا القليل.

ثم أشارت إلى المقعد المجاور لها كأنما تدعوه، فقال تومي وهو يجلس على مقعد في طرف المائدة الآخر: شكراً، شكراً.

وحدّثت توبنس نفسها قائلة: لا بدّ أن يكون هناك خطأ. لا، لا يمكن أن يكون هناك خطأ، لا يمكن أن يكون هنا شيء أبداً. أية عقلية تستطيع تصديق أن في سان سوسي مركزاً لقيادة الطابور الخامس؟!

* * *

الفصل الثالث

تمّت علاقات وطيدة بين تومي والميجور بلتشلي، ورغب كلاهما في لعب الغولف سوياً فذهبا إلى النادي الوحيد القريب، وكانت النتيجة أن ربح الميجور فقال: هذا شوط عظيم يا ميدوز، ولعل سوء الحظ الذي لازمك هذه المرّة يتركك في المرّة القادمة إذ يجب أن نعاود اللعب من وقت إلى آخر. والآن تعالَ معي لأقدّمك لبعض الصحاب من أعضاء هذا النادي. هذا هو هايدوك، لا شك أنه سيروقك، وهو ضابط بحّار متقاعد ويملك ذلك المنزل المطلّ على القمّة، كما أنه مراقِب الغارات الجوّية في هذه المنطقة.

كان الكوماندور هايدوك رجلاً ضخماً سليم الطويّة لفَح وجهه جوّ البحار الذي عاش فيه متنقّلاً، فحيا تومي بحماسة وقال: وأخيراً وجد بلتشلي مَن يصاحبه في سان سوسي وسيتخلّص من ذلك المستنقع النسائي الذي كان يغوص فيه، أليس كذلك يا بلتشلي؟

- أنا كما تعلم لست معنياً بالنساء.

- المسالة أنك لم تجد الصنف الذي يروقك وهذا كل

ما في الأمر. ما ترى هنا هو جماعة من العجائز كل همّهن الثرثرة وإبرة الصوف.

- أنت تتناسى الآنسة برينا.

- نعم، شيلا! إنها فتاة جذابة بلا شك، بل هي في رأيي نموذج للجمال.

وكانت المشروبات قد أُعدَّت فجلسوا جميعاً في شرفة النادي، ثم أعاد هايدوك سؤاله من جديد فأجاب الميجور بلتشلي بعنف قائلاً: هو ذلك الفتى الألماني الذي يزعجني؛ فهي تقابله كثيراً.

- هل تريد أن تقول إنها مغرمة به؟ هذا أمر سيئ للغاية، ولكن الواقع أنه شابّ جميل المظهر، ولكن العلاقة لا يجب أن تسير في هذا الطريق لأننا لا نرضى عن مثل ذلك يا بلتشلي؛ فهي ستؤدّي إلى التعاون مع الأعداء، أليس كذلك؟

- شيلا فتاة غريبة في الواقع، ثم إنها تتصرّف تصرّفات مبهمة.

- الدم الإسباني يجري في عروقها. هل تعلم أن أباها نصف إسباني؟

- لا أدري، ولو أن الاسم كما أرى يدلّ على ذلك.

ونظر الكوماندور في ساعته ثم قال: هذا وقت إذاعة الأخبار، فهيا نستمع إلى ما هنالك.

ولم تتقدّم المناقشة أكثر من ذلك لأن بلتشلي وتومي كانا مضطرَّين للذهاب إلى سان سوسي؛ فقد حلّ موعد الغداء. وقد دعا هايدوك تومي بحرارة إلى زيارته في منزله الصغير المسمى «استراحة المهرّبين» قائلاً إنه مكان لطيف يطلّ على البحر وفيه كل ما يسلّي، كما طلب إلى بلتشلي أن يأتي معه، فاتفق تومي والميجور على أن يذهبا إليه في مساء اليوم التالي.

ومرّ العصر في سان سوسي بأمن وسلام، فقد ذهب السيد كايلي ليستريح مع زوجته الجميلة، أمّا السيدة بلنكنسوب فقد ذهبَت بإرشاد الآنسة منتون لتشتري بعض الحاجات التي قالت إنها سترسلها إلى أبنائها في الجبهة، أمّا السيد ميدوز فقد خرج من سان سوسي بهدوء وسار في الطريق الممتدّ حتى نهاية مدينة ليهامتن وابتاع صندوقاً من لفافات التبغ وعدداً من مجلّة بنش. ولما وصل إلى المرفأ الصغير قفز إلى أحد القوارب العامة التي تنقل الركاب بين الحين والحين إلى سائر المدن الصغيرة المتناثرة على الساحل في تلك المنطقة، ولم يكن بالقارب سوى بضعة أطفال يصيحون ورجل مسنّ جلس في مؤخّرة القارب يتسلّى بصيد السمك، فاتجه إليه السيد ميدوز وسأله بأدب قائلاً: هل اصطدت شيئاً؟

فهزّ الرجل رأسه قائلاً: لا جديد حتى الآن، وماذا فعلت أنت؟

- لا شيء حتى الآن يا سيد غرانت سوى أنني اندمجت في

الجوّ، وأعتقد أنني وصلت إلى معلومات لا بأس بها. أظنك تعرف أسماء نزلاء سان سوسي، أليس كذلك؟

- بلى، أعرفهم.

- لقد توطّدت الصداقة بيني وبين الميجور بلتشلي ولعبنا الغولف سويا هذا الصباح ويظهر أنه يمثّل الضابط المتقاعد العادي، أمّا كايلي فهو يمثل المريض المخبول وقد قصّ عليّ بمحض إرادته أنه كان في ألمانيا مدّة طويلة قبل الحرب.

- هذه مسألة هامّة.

- ثم هناك فون دينيم.

- أجل، وأنا لا أوصيك بأن دينيم هو الشخص الذي يهمّني أمره.

- هل تظن أنه «ن»؟

- لا، لا أظن؛ ففي رأيي أن «ن» لا يرى من الحكمة أن يظهر في المجتمع في ثياب الألمان، ثم إننا سنعتقل كل رعايا الأعداء الذين يتراوح سنّهم بين السادسة عشرة والستين، وسواء أكان خصومنا قد حسبوا حساب هذا أم لم يحسبوه فلا بدّ أن يدركوا جواز حدوثه في أية لحظة، وبناء على ذلك يستحيل أن يجازفوا بعميد منظّمتهم فيتركوه عرضة للاعتقال، ولذلك أرجّح أن يكون «ن» من رعايا البلاد المحايدة أو إنكليزياً خالصاً، وينطبق نفس الشيء على «م». أمّا فون دينيم فقد يكون في حلقات السلسلة، ومن الجائز ألاّ يكون «ن» أو

«م» في سان سوسي وأنه ربما يكون فون دينيم هو رسولهما هناك وعن طريقه نستطيع أن نصل إليهما. وأظن أن هذا أقرب الفروض إلى الصواب.

- أعتقد أنكم تحرّيتم عن كل نزلاء سان سوسي.

- لا؛ فهذا مستحيل، رغم أنه يمكنني أن أطلب من الإدارة القيام به بلا شك، ولكنني لا أخاطر بذلك يا برسفورد، خاصة وأنك تعلم أن الإدارة نفسها موبوءة، فلو ذُكِرَت أيّ همسة عن سان سوسي فسيعلم بها الأعداء في الحال، وهذا هو الذي دفعنا إلى استخدامك لأنك غريب عن الإدارة، فيجب عليك أن تعمل في الظلام دون انتظار مساعدة منا، ومع كل ذلك فقد تحرّينا عن واحد منهم.

- ومَن هو يا سيدي؟

- كارل فون دينيم نفسه، أنا أستطيع بكل بساطة أن أفعل به ما يروقني باعتباره من رعايا الأعداء.

- وماذا كانت النتيجة؟

- كل ما يقول السيد كارل صحيح، فقد ظهر أن أباه مات في أحد المعتقلات وأن أخوَيه ما زالا سجينَين، كما ماتت أمّه في السنة الماضية بتأثير إرهاق عقلي عنيف. وقد صرّح الفتى حال وصوله برغبته في مساعدة هذه البلاد، وقد ثبت أن عمله في معمل البحوث الكيمائية لا غبار عليه، كما أنه استطاع أن يكشف وسائل مفيدة تقي البلاد شرّ بعض أنواع

الغازات السامّة.

- وعلى ذلك ترى ألاّ أشكّ فيه؟

- ليس ذلك ضرورياً؛ فأصدقاؤنا الألمان اشتهروا بدقّتهم في كل تصرّفاتهم، فإن كان فون دينيم قد أُرسل كعميل لهم فلا بدّ أنهم اتخذوا الحيطة حتى يكون كل ما يُعرَف عنه مطابقاً لشخصيته. وهناك احتمالان: الأوّل أن تكون عائلة فون دينيم قد اندمجت جميعها في تلك الترتيبات، والثاني أن يكون هذا الشخص رجلاً آخر تقمّص شخصية كارل فون دينيم.

- ربما، ولو أنه في نظري شابّ في غاية اللطف.

- أجل؛ فهم يظهرون كذلك دائماً. ما أغرب عملنا هذا! فنحن نحترم خصومنا وهم يحترموننا، وقد جرت العادة أن تقدّر خصمك وتعمل في نفس الوقت جاهداً على هدمه!

- ولكن هناك فئة لا نحترمها ولا نقدّرها.

- أجل، فئة الخوَنة الذين يقيمون بيننا، أولئك الذين رضوا أن يبيعوا وطنهم. وواجبنا أن نستأصل شأفتهم ونبيدهم عن آخرهم، على أن يتمّ ذلك بأسرع ما يمكن وإلاّ فاتنا القطار.

- لن يفوتنا القطار يا سيدي بكل تأكيد.

- ماذا يدفعك إلى هذا التأكيد؟

- أنت يا سيدي؛ فقد قلت إن واجبنا أن نستأصلهم

بأسرع ما يمكن.

فنظر إليه غرانت بإعجاب وتمتم قائلاً: عظيم، ولكن ما رأيك في سيّدات سان سوسي؟ هل ترى فيهن من يُشتبَه في أمرها؟

- أنا أرى بعض الغرابة في سلوك صاحبة المكان.

- السيدة برينا؟

- نعم. أتعلم أيّ شيء عنها؟

- سأحاول أن أتحرّى عنها رغم ما في ذلك من مخاطرة.

- أجل؛ فهي الوحيدة بين النساء التي تحوم حولها شكوكي، أمّا الباقيات فهنّ أُمّ شابة وعانس كثيرة الكلام وامرأة مخبولة وامرأة أيرلندية مخيفة المنظر، وكلّهنّ فيما أرى لا ضرر منهنّ.

- وهل هناك غير هؤلاء؟

- هناك السيدة بلنكنسوب التي وصلَت منذ ثلاثة أيام فقط.

- وماذا عنها؟

- السيدة بلنكنسوب هي زوجتي.

- ماذا؟!

ثم صاح غرانت وهو يدور حول نفسه متفرّساً في تومي بغضب شديد: امرأتك يا تومي؟! ألم نقُلْ لك ألاّ تنبس بكلمة واحدة لزوجتك؟

- بلى يا سيدي، وقد فعلت، ولكن إذا أعرتَني سمعك قليلاً...

وبإيجاز روى تومي كل ما حدث دون أن يجرؤ على النظر إلى محدّثه. ومرّت فترة سكون بعد أن أتمّ القصّة، ثم تبع ذلك ضحكات، بل قهقهة السيد غرانت التي استمرّت عدّة دقائق ثم قال: أنا أحني هامتي لتلك السيدة. أنت لن تجد واحدة في الألف مثلها.

- إنها زوجتي يا سيدي، وأنا فخور بها.

- سيضحك أيسامتون ملء شدقيه عندما يسمع هذه القصّة؛ فقد تنبّأ بها وحذّرني من تهيئة الفرصة لها للعمل تحت إمرتي حتى لا تفوز عليّ، ولكنني لم أهتمّ بما قال وكنت أنوي الاتصال بها قريباً لتكليفها بمهمّة أخرى. ولكن هذا الحادث، رغم أنه في صالحنا، يُرينا إلى أيّ حدّ يجب أن نكون على حذر. لقد ظننت يوم زُرتك أنني كنت محتاطاً جداً لأمنع أيّ مخلوق من الإنصات إلى حديثنا، وقد اقتنعت أنا نفسي أولاً بأنك وزوجتك وحدكما في الشقّة، كما أنني سمعت ذلك الصوت الحادّ في الهاتف فلم يساورني فيه أيّ شك، ورغم كل ذلك فقد خُدِعت بلعبة الباب المصفوق القديمة. أجل، إنها سيدة بارعة!

وصمت لحظة ثم استطرد قائلاً: بلّغها عن لساني أنني أعترف لها بالغلبة وأنني أعتبرها معنا في العمل. إنها معنا سواء أردنا أم لم نُرِد، فبلّغها أن الإدارة تتشرّف باشتراكها معنا في هذه المهمّة.

- سأُبلغها ذلك يا سيدي.

- ولكن المسألة خطيرة إلى حدّ كبير، فإذا حدث وكشفوا أمرك أو أمرها...

- أنا أفهم هذا جيداً يا سيدي، ولكننا اعتدنا منذ زواجنا أن نشترك في كل شيء.

* * *

الفصل الرابع

عندما دخلت توبنس غرفة الاستراحة في سان سوسي كانت السيدة أوروك وحيدة تنظر من النافذة إلى الخارج، فخُيّل لتوبنس أنها أشبه الأشياء بتمثال بوذا الضخم، ثم قطعت توبنس عليها تيّار أحلامها فسألتها قائلة: هل تعتقدين أن السيدة برينا أيرلندية؟

- نعم، ولست أشكّ في ذلك؛ فأنا أعرَفُ الناسِ بسيّدات بلادي، كما أنني أستطيع تحديد المنطقة التي تنتميَ إليها رغم أنها تدّعي في كل وقت أنها إنكليزية وأن زوجها إسباني.

وانقطع الحديث عندما دخلَت القاعة السيدة سبروت يتبعها تومي، فسارعَت توبنس إلى تمثيل دور الاهتمام به وقالت: مساء الخير يا سيد ميدوز، يبدو عليك النشاط هذه الليلة.

- يرجع السرّ في ذلك إلى الرياضة المتواصلة؛ فقد لعبت شوط غولف هذا الصباح وقمت بجولة طويلة بعد الظهر.

فقالت السيدة سبروت: أمّا أنا فقد صحبت الطفلة إلى

الشاطئ، وكانت تودّ النزول في أحد القوارب ولكنني خفت عليها من البرد فساعدتها في بناء بيوت من الرمال وأهملت الإبرة والصوف.

وبعد لحظات وصل باقي النزلاء ثم حان وقت العشاء، فدار الحديث بين الجميع على المائدة في موضوعات الحرب والجاسوسية والتموين، وبعد العشاء خرجَت توبنس وتبعها تومي فسارا قليلاً فترة من الوقت استعرضا فيها شكوكهما بالنسبة لكل نزلاء سان سوسي، ثم تركت توبنس تومي.

وفي طريقها إلى المنزل اشترت بعض طوابع البريد ودخلت أحد مقصورات الهاتف العامّة وطلبَت السيد فراداي، وكانت تلك هي الوسيلة التي اتفق عليها تومي للاتصال بالسيد غرانت، وخرجَت من مقصورة الهاتف باسمة، ثم اشترت بعض الصوف اللازم لأشغال الإبرة والغزل.

وفكّرت وهي تسير في طريقها إلى المنزل في شخصية السيدة بلنكنسوب التي تقمّصَتها، شخصية السيدة التي لا تجيد غزل الصوف، ولكنها تقضي أغلب وقتها فيه وفي كتابة الخطابات لأبنائها، ثم فكّرت أيضاً في أنها كثيراً ما تتعمّد ترك تلك الخطابات في غرفتها قبل الانتهاء منها. ووصلَت توبنس إلى قمّة التلّة المطلّة على سان سوسي فسارت في الطريق المؤدّي إليها، ذلك الطريق الذي ينتهي من الناحية الأخرى بمنزل الكوماندور هايدوك المسمّى استراحة المهرّبين.

ثم أخذَت تتسلّى بقراءة أسماء المنازل حتى إذا قاربت

سان سوسي رأت منظراً أثار دهشتها، فقد كان هناك خيال امرأة واقفة إلى جوار سور المنزل الحديدي تتلصّص بالنظر إلى داخلها في شكل مريب، ودون وعي أسرعت توبنس وأخْفَت صوت خطواتها وسارت باحتراس، فلم تشعر بها تلك المرأة الغريبة حتى أصبحت توبنس خلفها تماماً فاستدارت المرأة فجأة.

كانت امرأة طويلة القامة متوسّطة السنّ ترتدي ثياباً حقيرة، وكان هناك تبايُن بين جمال وجهها وحقارة ملابسها، وشعرت توبنس لأوّل وهلة أن ذلك الوجه ليس غريباً عليها، ولكن هذا الإحساس سرعان ما اختفى عندما فزعت المرأة وظهرت على وجهها علامات الذعر والفزع، فسألتها توبنس بهدوء قائلة: لا تؤاخذيني، هل تبحثين عن شخص ما؟

فأجابت المرأة ببطء بلهجة أجنبية، وكانت تنطق الكلمات كما لو كانت قطعة محفوظات: هل هذا المنزل يُدْعى سان سوسي؟

- نعم، وأنا من المقيمات فيه. هل تريدين أحداً منهم؟

- أتسمحين، هل هناك من يُدْعى السيد روزنستاين؟

- السيد روزنستاين؟ لا، أخشى ألاّ يكون هذا الاسم هنا وربما كان، فإذا أردت بحثنا لك عنه في سجلاّت النزلاء أو نسأل صاحبة المنزل.

- لا، لا ضرورة؛ فقد أخطأت. لا تؤاخذيني من فضلك.

وأسرعَت فاستدارت وانحدرت مع التلّ. والتفتت توبنس تنظر خلفها وقد ثارت شكوكها؛ فهناك تبايُن عظيم بين تلك المرأة ومظهرها، ولا بدّ أن اسم روزنستاين هذا قد اخترعَته في الحال. ثم بدأت توبنس تهبط التلّ خلف تلك الغريبة، ولكنها ما كادت تخطو عدّة خطوات حتى توقّفَت وفكّرت في أنها لو سارت خلفها فستجتذب الأنظار إلى نفسها لأنها لو شوهدت وهي تتبع تلك المرأة فستثير الشكوك نحوها، وخصوصاً إذا كانت تلك الغريبة من عصبة الأعداء، فصمّمت على أن تعود إلى سان سوسي.

وعندما دخلت إلى الردهة الخارجية لم ترَ أحداً، ثم سمعت بعد لحظة صوتاً ليس غريباً عليها، فهو أحد الأصوات التي تعرفها جيداً. وكان الهاتف في منزل سان سوسي موضوعاً في الردهة الخارجية، ولم يكن هناك أحد يتكلّم فيه ولكنها سمعَت صوتاً هو صوت وضْع السمّاعة أو رفعها عن آلة فرعية في مكان ما، وكانت توبنس تعلم تماماً أن آلة فرعية واحدة في المكان وأنها في غرفة نوم السيدة برينا. ولو كان تومي في هذا الموقف لما جرؤ وما أقدم على ما فعلَت توبنس، ولكنها لم تتردّد فسارت بخفّة إلى موضع الهاتف ورفعَت السماعة بهدوء شديد فاستمعت إلى ما يدور من حديث. كان هناك من يتكلّم، وكان صوت رجل يقول: كل شيء يسير على ما يرام، إذن في الرابع كما هو متفّق عليه.

فأجاب صوت نسائي: أجل، ولنواصل العمل.

ثم وُضِعَت السمّاعة، ووقفَت توبنس تفكّر لحظة وتقول لنفسها: هل يكون ذلك صوت السيدة برينا؟ من الصعب التأكّد من ذلك. ولكن أليس من الممكن أن يكون حديثاً عادياً لا قيمة له؟

وتمنّت لو استمرّ الحديث فترة أطول، ثم لاح خيال على أحد الأبواب فأسرعَت توبنس ووضعت السمّاعة في مكانها، وعندئذ سمعَت صوت السيدة برينا تقول: ما أجمل الجوّ الآن! هل أنت خارجة يا سيدة بلنكنسوب أم قادمة؟

وأجابت توبنس بأنها قضَت الوقت في الخارج وأنها في طريقها إلى غرفتها، ثم استنتجت توبنس أن التي تحدّثت في الهاتف لم تكن السيدة برينا؛ فالمسافة من غرفتها إلى الردهة لا يمكن أن تقطَع في تلك اللحظات القصيرة بعد ختام الحديث الهاتفي وظهورها في الردهة، وخُيّل لتوبنس أن السيدة برينا تتحرّك خلفها ببطء فالتفتت ورأت السيدة أوروك في أعلى الدرَج تسدّ عليها الطريق بجسمها الضخم، وفي تلك اللحظة الحرجة مرّت من خلف السيدة أوروك بتي الصغيرة وكانت تصيح. ثم تعلّقَت بتي بتوبنس فأكملت صعود الدرَج وقابلت السيدة سبروت على باب غرفتها، وكانت قد بدأت تعنّف الطفلة، فدخلت توبنس غرفة السيدة سبروت ورأت ملابس الطفلة منتثرة هنا وهناك مختلطة بلعبها وكتبها، كما لاحظت صورة للسيد سبروت موضوعة فوق خزانة الملابس، وكان

كل ما في الغرفة على حال من الفوضى لا حدّ له، فأدركت توبنس الأسباب التي تدعو السيدة سبروت إلى العزوف عن استقبال أحد في غرفتها؛ لا بدّ أنها هذه الفوضى الدائمة بلا شكّ.

حقاً إن كل ما في سان سوسي يبدو طبيعياً، ولا بدّ أنها أعصاب توبنس المرهَقة هي التي صوّرت لها ما صوّرت، ولكن شخصاً ما كان يتكلّم في الهاتف من غرفة نوم السيدة برينا بالتأكيد ويقول: «الرابع»... هل كانت السيدة أوروك؟ هذا يبدو مستبعَداً.

قد لا تعني تلك الكلمات شيئاً، وقد تعني أشياء خطيرة. الرابع، هل هو تاريخ؟ الرابع من الشهر مثلاً؟ التحقّق من ذلك مستحيل، ولعل المسألة لا تعدو أن تكون أمراً عادياً جدّاً كأن تكون السيدة برينا قد سمحَت للسيدة أوروك باستعمال الهاتف الموجود في غرفة نومها في أيّ لحظة تشاء.

* * *

الفصل الخامس

ظهر الكوماندور هايدوك مضيفاً من الطراز الأوّل؛ فقد قابل السيد ميدوز والميجور بلتشلي بحماسة وصمّم أن يطوف بالأوّل كل أرجاء منزله الصغير المسمّى استراحة المهرّبين، ولم تكن تلك الاستراحة في أوّل أمرها سوى كوخين من أكواخ حرّاس الشواطئ يقعان على قمّة تشرف على الشاطئ اشتراها أحد رجال الأعمال وربط بينهما وحاول أن يزرع حديقة في الأرض المحيطة بأحدهما لأن الجهة الأخرى كانت هوّة لا يخاطر بالاقتراب منها إلا المخاطرون من الشباب. وكان رجل الأعمال هذا لا يزور تلك الناحية إلاّ في شهور الصيف ثم يتركها فتبقي بلا ساكن عدّة شهور، وكانت تستأجَر في شهور الصيف فقط. قال هايدوك يكمل قصّة منزله: ثم اشتراها رجل يُدْعى هاهن وكان ألمانياً، وإذا سألتَني عن صناعته لم أجد وصفاً سوى أنه كان جاسوساً لا أقلّ ولا أكثر.

- جاسوس! هذه قصّة مثيرة.

- أجل، فهُم قوم بعيدو النظر. خُذ مثلاً موقع هذا المكان، إنه أحسن مكان مناسب لإرسال الإشارات عبر

البحر، كما أن لديك مرفأ حتى تستطيع أن تخفي فيه قاربك البخاري لو أردت. وقد صرف هاهن على المكان مبالغ طائلة، فقد أنشأ درَجاً حجرياً ضخماً يصل المكان بالشاطئ، والغريب في الأمر أن جميع الإنشاءات التي أجراها والتحسينات التي تمت في البناية نفسها لم يقُم بها أيّ مواطن؛ فقد كان جميع العمّال من الأجانب.

- أمر غريب حقاً!

- وكنت أقيم بالمنطقة حينذاك، وأثار اهتمامي ما كان يفعله الرجل فكنت أخرج من منزلي وآتي إلى هنا أرقب العمّال الألمان، ولما تحقّقت من غرابة الأعمال التي يقومون بها اتصلت برجال الشرطة وأوضحت لهم شكوكي ولكنهم لم يعيروا قولي أيّ اهتمام؛ فالحرب مع ألمانيا كانت أمراً بعيداً عن تصوّرهم، وقد اعتبروني حينئذٍ من الرجعيين أو مجنوني الحرب. لكنني كنت أعلم أن أصدقاءنا الألمان قوم شديدو الصبر يعدّون العدّة لأيّ أمر من الأمور بتؤدة وعلى مَهل، ولم تعجبني إطلاقاً أحوال ذلك الرجل هاهن فأخذت أتحدّث عن شكوكي لكل معارفي. وأخيراً تركَت أحاديثي بعض الأثر، ثم تعرّفت إلى أحد رجال الشرطة وأقنعته بشكوكي فلم يجد غضاضة في مراقبة هاهن، ويظهر أن هذا أحسّ بالمراقبة فاختفى نهائياً فصدر الأمر لرجال الشرطة بتفتيش المكان فوجدوا جهازاً لاسلكياً أُخفي بمهارة في حائط حجرة الطعام، كما وجدوا أوراقاً ذات أهمية عظمى وخزّاناً ضخماً للبترول تحت حظيرة السيارات وغير ذلك، وفي النهاية عُرض المنزل

للبيع فاشتريته. وأنا أودّ أن ترى ما فيه، هيا يا ميدوز.

- أشكرك، أنا أودّ أن أراه فعلاً.

ثم قام الرجلان، وقد أظهر هايدوك حماسة الطفولة وهو يُري ضيفه مكان جهاز اللاسلكي المدفون في حائط حجرة الطعام وكذلك مخزن الوقود السائل تحت الحظيرة ثم الحمّامَين الجميلين وأدواتهما الغريبة ووسائل الإنارة المختلفة. وبعد ذلك رأى الطريق الحجريّ المدرّج الموصل إلى شاطئ البحر، ثم عاد هايدوك يحدّث ضيفه من جديد عن قيمة المكان كلّه من الوجهة الحربية. ولم يدُر الميجور بلتشلي مع الرجلين دورتهما هذه ولكنه مكث حين كان في الشرفة يشرب قدح القهوة، وقد أدرك تومي أن الميجور لم يترك واحداً من أصدقائه دون أن يحدّثه عن الجاسوس الذي اكتشفه.

وبعد فترة قام بلتشلي وصحب تومي إلى سان سوسي، وقال الميجور وهما في الطريق: هايدوك هذا رجل طيّب، ومع ذلك فهو لا يترك الأمور تمرّ ببساطة؛ فقد سمعنا منه قصّة الجاسوسية هذه مئات المرّات.

ثم راح بلتشلي نفسه يقصّ على تومي إحدى مخاطراته الخاصّة، ولم يكن تومي على استعداد لتتبّع تفصيلات تلك القصّة، فقد سرح بأفكاره الخاصة. وكان تومي قد أدرك حينئذ أن فاركوهار الذي حلّ هو محلّه كان يسير في الطريق الصحيح عندما ذكر سان سوسي قُبيل وفاته، كما تأكّد بعد أن رأى ما

رآه في استراحة المهرّبين تلك الاستعدادات التي أعدّها هاهن الألماني. إن تلك المنطقة من المناطق التي يهتمّ بها العدوّ منذ عهد بعيد، كما أن نشاط هاهن لم يُكتشَف إلاّ بطريق الصدفة ونتيجة لمجهودات الكوماندور المتواصلة. ثم تذكّر تومي قصّة السيدة برينا وأن زوجها -كما تقول- اشترى سان سوسي منذ أربعة أعوام تقريباً، فهل هذه هي الحلقة الثانية؟ كل شيء جائز ومحتمل.

ثم فكّر في ذلك السكون والهدوء السطحي الذي يمتاز به منزل سان سوسي، هو سكون ظاهري يخفي وراءه كثيراً. والسيدة برينا في نظره هي البؤرة التي تتجمّع فيها كل الإشعاعات ويجب مراقبتها، وإذا كانت السيدة برينا هي السيدة التي يرمز إليها بالحرف «م» فستكون زعيمة أعمال الجاسوسية والطابور الخامس في هذه البلاد، ولا بدّ أن شخصيتها ليست معروفة إلا لرؤسائها، ولكن لا بدّ أن تتصل بالطبقة التي تليها في الأهمية وعلى تومي وتوبنس أن يكتشفا تلك الطبقة، ثم إن الانتفاع باستراحة المهرّبين ليس بالأمر المستحيل؛ ففي الوقت المناسب يستطيع أسياد سان سوسي أن يجعلوه تحت تصرّفهم، ولكن اللحظة المناسبة لم تأت بعد.

* * *

كتبت توبنس خطاباً لابنتها ديبورا وآخر لدريك ولدها، ثم خرجت بنفسها لتودعهما صندوق البريد، وفي أثناء عودتها مرّت بقمّة التل المجاورة لسان سوسي فاسترعى انتباهَها

شبحان وقفا يتبادلان الحديث، فتسمّرت توبنس في مكانها لما تبيّنَت أن أحد هذين الشبحين هو المرأة الغريبة التي رأتها بالأمس وأن الشبح الآخر هو كارل فون دينيم. وقد ضايق توبنس عدم وجود مكان تستطيع الاختفاء فيه، كما لم يكن في استطاعتها الاقتراب منهما لتسمع ما يدور بينهما من حديث دون أن يشاهداها، بالإضافة إلى ذلك أدار الشاب الألماني رأسه في تلك اللحظة فرآها فهمس بكلمات قليلة للمرأة الغريبة فافترقا.

وانحدرت المرأة مع التلّ بسرعة عابرةً الطريق الرئيسي مارّة بتوبنس التي كانت في الناحية الأخرى. أمّا كارل فون دينيم فقد انتظر مكانه إلى أن وصلت توبنس فألقى عليها التحية بلهجة تنمّ عن الأسى، فقالت توبنس على الفور: ما أشدّ غرابة مظهر تلك السيدة التي كنتَ تتحدّث إليها يا سيد دينيم!

- أجل، إنها من أواسط أوروبا، وهي بولندية.

- أحقاً؟ أهي صديقة لك؟

- لا، فأنا لم أرَها قبل هذه اللحظة.

- لقد ظننت...

- كانت تسألني عن الطريق، وكان حديثنا بالألمانية لأنها لا تكاد تفهم الإنكليزية.

- كانت تسألك عن الطريق؟

– كما سألَتني إذا ما كنت أعرف السيدة غودليب فأجبتها بالنفي، فقالت إنها ربما أخطأت العنوان.

ورمقت توبنس كارل وهو يسير إلى جوارها، وفكّرت في تلك المرأة التي تسأل ساعة عن السيد روزنستاين وساعة أخرى عن السيدة غودليب، فشعرَت بشكوك لا نهاية لها، وخُيّل إليها أن الحديث بين كارل وتلك المرأة لا بدّ أنه استغرق وقتاً طويلاً. ثم استعادت في ذاكرتها حديث كارل وشيلا عندما قالت له: يجب أن تكون على حذر.

وسارت توبنس إلى غرفة نومها وهي تفكّر في كارل وشيلا والسيدة برينا صاحبة المنزل، وقبل أن تذهب إلى فراشها اتجهت إلى مكتبها الصغير وفتحت أحد الأدراج، وكان فيه صندوق صغير فلبست قفّازها وفتحت الصندوق. وكان فيه مجموعة من الخطابات وفوقها جميعاً ذلك الخطاب الذي تسلّمَته في الصباح من ابنها المزعوم رايموند، ففتحته توبنس باحتياط ثم ضمّت شفتيها وقطبت وجهها؛ فقد اختفى الرمش الصغير الذي كان بين طيّات الخطاب، فذهبَت بالخطاب إلى طاولة الزينة واستعانت بأحد المساحيق الغامقة التي تستعملها في تظليل جفونها، فنثرته على الخطاب ثم نفضته فلم يظهر أي أثر لبصمات الأصابع، فهزّت توبنس رأسها بتأكيد إذ إنه لا بدّ من وجود بصمات، بصمات توبنس نفسها على الأقل، فقالت لنفسها: يجوز أن يقرأ أحد الخدم خطاباتي بدافع حبّ الاستطلاع مثلاً (ولو أن خذا مستبعَد) ولكن الخادم لا يفكّر مطلقاً في إزالة آثار بصمات الأصابع. هل هي السيدة برينا أم

شخص آخر؟ هو على كل حال شخص يهتمّ بحركات القوّات البريطانية.

ثم بدأت تفكّر في الاحتمالات المختلفة وفي وجوب إجراء تجربة لمعرفة الشخص أو الأشخاص الذين يهتمّون بحركات تلك القوّات.

وقضت توبنس الصباح التالي في فراشها حتى دخلت بتي إليها، وكانت توبنس تحبّ الطفلة، وصعدت الطفلة على الفراش إلى جوار توبنس وألقت إليها بكتاب من كتب الأطفال عنوانه «أحلام سندريلا»، فأخذت توبنس تمازح الطفلة وتداعبها وتروي لها بعض طرائف الكتاب، وفجأة اندفعت السيدة سبروت إلى الحجرة وهي تقول: ها هي العزيزة! لقد بحثت عنك في كل مكان أيتها الشيطانة الصغيرة. كم أنا آسفة يا سيدة بلنكنسوب!

وكانت بتي قد حلّت أربطة الحذاء ووضعتها جميعاً في كوب اللبن وأخذت تعبث بها، فجلست توبنس في فراشها تضحك، ثم قالت تقاطع السيدة سبروت التي أكثرت من اعتذاراتها: لا داعي لكل هذا يا سيدة سبروت؛ فالأربطة يمكن تجفيفها وأنا التي أخطأت إذ لم ألاحظ ما تفعل.

- إذا سمحت سآتي لك بأربطة أخرى.

- لا، لا. أشكرك، فلديّ غيرها، كما أن هذه ستجفّ بلا شك.

ثم أخذت السيدة سبروت الطفلة من يدها، وقامت توبنس من الفراش لتنفّذ ما عزمت عليه.

* * *

الفصل السادس

نظر تومي بعجب إلى الحزمة التي ألقت بها توبنس إليه وسألها قائلاً: هل هذه هي...؟

- نعم.

وتشمّم رائحة الحزمة الغريبة فقالت توبنس: أبْعِدها عن ملابسك بقدر ما تستطيع، وإلاّ فلن تقترب منك أية فتاة.

ثم توالت الأحداث بعد ذلك، فقد ظهرت رائحة غريبة في حجرة السيد ميدوز، وكان معروفاً بين نزلاء سان سوسي أنه رجل قانع قليل الشكوى، ومع ذلك فقد تحدّث عن تلك الرائحة للسيدة برينا التي استغربَتها ثم قالت: ربما كان هناك شرخ في إحدى أنابيب الغاز.

فتتبع السيد ميدوز أنابيب الغاز في غرفته دون جدوى وقال: لا بدّ أن يكون هناك فأر ميّت في الغرفة.

ولكن السيدة برينا شكّت في الأمر لأنه لم يسبق أن دخل سان سوسي فأر واحد، وتناقش الرجل طويلاً مع صاحبة

المنزل، وأخيراً قال: أنا لا أستطيع أن أبيت ليلة أخرى في هذه الغرفة.

- معك حقّ في ذلك، ولكن يؤسفني جداً أنه لم يبقَ في المنزل كلّه غرفة لائقة، كما أن الغرفة الوحيدة الخالية قد لا تروقك؛ فهي لا تطلّ على البحر، ولكن إذا وافقتَ على الانتقال إليها مؤقّتاً فتفضّل.

ولم يكن لدى السيد ميدوز أيّ مانع فقبل الانتقال لأن غرضه هو الابتعاد بقدر الإمكان عن تلك الرائحة الكريهة، فقادته السيدة برينا إلى غرفة تصادَف أنها تقابل غرفة السيدة بلنكنسوب.

أمّا الحدث الثاني فهو أن السيد ميدوز المسكين أُصيب بأعراض الأنفلونزا في تلك الليلة، فأخذ يعطس ويغيّر مناديله طوال الوقت، ولم يرَ أحد طبعاً شرائح البصل التي وضعها في تلك المناديل، كما أن أحداً لم يشمّ رائحة البصل غيره؛ فقد عطر جميع المناديل بماء العطر الذي يستعمله في حلاقة ذقنه، وأخيراً اضطُرّ السيد ميدوز المسكين أن يعتكف في غرفته تحت وطأة هذه الأنفلونزا الحادّة.

وفي الصباح وصل السيدة بلنكنسوب خطاب من ولدها دوغلاس فهلّلت عندما تسلّمت ذلك الخطاب إلى حدّ أن علم به كل من كان في سان سوسي، وكانت قد أشاعت أن ذلك الخطاب لم يمرّ مطلقاً على الرقيب؛ فقد سلّمه إليها أحد أصدقاء ولدها، وهكذا استطاع دوغلاس العزيز أن يكتب

لها بحرّية كما استطاعت هي أيضاً أن تعرف من الحقائق ما لن تصرّح به ولن تذيعه، وأن كل ما يقال ويشاع ليس شيئاً إلى جانب ما عرفَت. وبعد أن تناولت طعام الإفطار صعدت إلى غرفتها ثم فتحت صندوق الخطابات وأودعت فيه خطاب دوغلاس بعد أن نثرت عليه قليلاً من مسحوق الأرز وضغطت عليه بأصابعها، ثم خرجت من غرفتها وهي تسعل فسمعت من الغرفة المقابلة سعالاً آخر.

ثم أذاعت في سان سوسي أنها ذاهبة إلى محاميها في لندن وأنها ستشتري بعض الحاجات من العاصمة، فكلّفها بعض النزلاء بشراء أشياء لا يجدونها في حوانيت ليهامتن. وبينما هي مارّة من باب الحديقة قابلت كارل فون دينيم واقفاً وقد عقد يديه فوق صدره وأطرق مفكّراً، وعندما رآها انحنى محيّياً بوجوم وأدب، فسألته قائلة: ماذا بك اليوم؟ هل هناك مشكلة؟

- مشكلات كثيرة، فمَثلي كمَثل من يمسك بالنار ولا يريد أن يحترق. أنا لا أستطيع الاستمرار على هذه الحال، والوسيلة الوحيدة هي أن أنتهي من كل شيء.

- ماذا تعني؟

- أنت تفهمين ما أعني. لقد أظهرت حنانك لي، وتعلمين أنني هربت من بلادي لانعدام العدالة فيها وللقسوة التي يعامَل بها الأحرار هناك، وقد أتيت إلى هذه البلاد لأجد الحرّية، وحقاً أنا أكره ألمانيا النازية، ولكن لا أستطيع أبداً

أن أتجرّد من ألمانيتي، فأنا ألماني، ألماني!

- من الواضح أن هناك متاعب من هذه الناحية؟

- إنها متاعب نفسية؛ فعندما أسمع عن طائراتكم تضرب مُدننا وعن الجنود الألمان الذين يُقتَلون والطائرات الألمانية التي تحترق والمصانع التي تدمَّر، وهي مصانع أهلي وعشيرتي، وعندما أسمع ذلك الميجور، آكل النار، يقول وهو يقرأ صحيفته: "هؤلاء الملاعين... هؤلاء الخنازير"، عندما أسمع كل هذا يصل بي الغضب إلى حدٍّ لا أستطيع احتماله، وعلى هذا ترين أنني أفكّر جدّياً في الانتهاء من كل شيء.

- هذا كلام لا معنى له، وأنا معك من ناحية واحدة، فإحساسك ملكك افعل به ما تشاء، ولكن يجب أن تقاوم، فلا حيلة لك في تغيير الأوضاع.

- كم أودّ أن أُعتقَل على الأقلّ! هذا سوف يُريحني كثيراً.

- ربما، ولكنك تقوم بعمل له أهميته كما علمت، وهو ليس عملاً نافعاً لبريطانيا وحدها ولكنه نافع للإنسانية كلّها.

- أجل، وأظنني وُفّقت إلى بعض الاكتشافات.

- هذا جميل ما دمتَ تعمل لخير الإنسانية، أمّا من ناحية الشتائم التي تسمعها فنحن معذورون في ذلك، ولا تنسَ أنهم يفعلون نفس الشيء في ألمانيا.

فتناول كارل يدها ثم قال: أنا أشكرك، فكلّ ما تقولين حقّ ولا بدّ من الاستعانة بالصبر والجلَد.

وذهبَت توبنس إلى المحطة وهي تفكّر قائلة لنفسها: هذا الشاب هو أقرب نزلاء سان سوسي إلى قلبي، ولكنه ألماني بكلّ أسف.

ورغم أنها لم تكن راغبة في الذهاب إلى لندن إلا أنها رأت وجوب ذلك؛ فقد أذاعت الخبر، وقد يحدث بالصدفة أن يراها أحد في أيّ مكان آخر إذا لم تذهب فيُشاع ذلك فوراً في سان سوسي، فيجب أن تذهب. وما إن غادرت شبّاك التذاكر حتى قابلَتها شيلا برينا.

- مرحباً. إلى أين أنت ذاهبة؟ لقد حضرت لأتسلّم طرداً.

- إلى لندن.

- أجل، سمعتك تذكرين ذلك. سأتسلّم الطرد وآتي لمرافقتك إلى القطار.

وذهبت الفتاة ثم عادت لتبقى مع توبنس حتى تحرّك القطار، وجلست توبنس على مقعدها تفكّر. هل كان ذلك مصادفة أم أن السيدة برينا أرسلَت ابنتها خصيصاً للتأكّد من سفر السيدة بلنكنسوب؟ ويبدو أن الأمر كذلك.

ولم تستطع توبنس الاختلاء بتومي حتى كان صباح اليوم التالي، وكانا قد اتفقا على ألاّ يتقابلا في سان سوسي، فخرج

السيد ميدوز بعد أن خفّت عنه وطأة الزكام يتمشّى إلى جوار الشاطئ، ثم جلس على أحد المقاعد الحجرية المنتشرة، وهناك رأته السيدة بلنكنسوب مصادفة وقالت بعد أن تأكّدَت ألاّ رقيب هناك: ماذا وراءك؟

- لقد قضيت يوماً من أصعب الأيام؛ فقد كاد عنقي ينكسر من طول المراقبة، ولكنني عرفت أشياء لا بأس بها.

- لا بأس على عنقك. حدّثني بما عرفت.

- دخل الخدم طبعاً ليرتبوا غرفتك كما هي العادة، ودخلَت السيدة برينا أيضاً لتعنّف الخادمة وتستعجلها في عملها، كما دخلت بتي.

- ثم مَن؟

- ثم شخص آخر.

- مَن؟

- كارل فون دينيم.

- كارل؟! متى؟

- في وقت الغداء. رأيته يسير متلصّصاً في الممر ثم سار إلى غرفتك ومكث هناك نحو ربع ساعة ثم خرج.

- ماذا؟!

- أظنّ أن هذا يكفي.

وأطرقت توبنس ثم قالت كأنها تحدِّث نفسها: أجل، هذا يكفي.

ثم تذكّرَت حديثها مع الشابّ. حقاً هو ممثل بارع ولا شك، وقد كان على حقّ فيما قال؛ فهو رجل وطني يخدم دولته، وقد يقدّره الإنسان لهذا السبب ولكنه يحطمه أيضاً. ثم وجدت توبنس نفسها تقول: كم يؤسفني ذلك!

- وأنا أيضاً، فهو شابّ طيّب ولكن...

- هذا هو ما كنا سنقوم به بالضبط لو كنا في ألمانيا، ومهما كان الأمر فقد عرفنا طرف الخيط على الأقل، فكارل يعمل بالاشتراك مع شيلا وأمّها وربما تكون السيدة برينا هي المرجع الأوّل، ثم هناك تلك السيدة الغريبة التي كانت تحادث كارل.

- ماذا نفعل الآن؟

- يجب أن نزور غرفة السيدة برينا فربما وجدنا بها ما يهمّنا، كما يجب أن نتعقّبها لنعرف أين تذهب ومَن تقابل؟ تومي، هيا نستدعي ألبرت ليساعدنا.

- ألبرت؟ يا لها من هي فكرة! سأرى إذا كان ذلك ممكناً أم لا.

كان ألبرت يعمل منذ سنوات في أحد الفنادق ثم انضمّ إلى إدارة الأمن العام، وقد عمل تحت إمرة آل برسفورد طوال السنوات الماضية، ولما اعتزلوا العمل تركه هو الآخر وافتتح

مقهى صغير في جنوب لندن.

قالت توبنس: ألبرت سيُدهَش عندما نستدعيه. دعه يستأجر غرفة في فندق المحطة ومن هناك يستطيع أن يقتفي أثر من نريد.

- هذا جميل، خاصة وأنني أرى استحالة مراقبتنا لمن نشتبه فيهم من سكّان سان سوسي، أمّا ألبرت فلا يعرفه أحد. ثم يجب أن نبذل جهداً كبيراً لكشف القناع عن نشاط تلك المرأة البولندية التي تقولين إنها كانت تحادث كارل؛ إذ يخيّل لي أنها حلقة الاتصال بين كارل والجانب الآخر من العصابة.

- أجل، أجل، فهي إمّا أن تأتي إلى هنا لتبلغ الأوامر أو لتتسلّم رسائل وتقارير، وأرجو أن نوفّق إلى اقتفاء أثرها عند رؤيتها ثانية.

- ثم لا تنسَي أن علينا زيارة غرفة السيدة برينا والسيد كارل.

- لا أظن أننا سنجد شيئاً هامّاً في غرفة كارل، فلا تنسَ أنه ألماني والمفروض أنه مُعرّض في أية لحظة لمهاجمة رجال الشرطة والمعقول أنه لا يحتفظ لديه بأيّ شيء يثير الشكوك، أمّا دخول غرفة السيدة برينا فهو من الصعوبة بمكان، وخصوصاً أن ابنتها تحتلّ الغرفة في حال غياب أمّها، ثم لا تنسَ أن بتي وأمّها تنتقلان طوال النهار في كل مكان من المنزل، وكذلك السيدة أوروك التي تقضي معظم وقتها في غرفتها وبابها مفتوح على مصراعيه.

- أظن وقت الغداء هو أنسب الأوقات.

- كما استغلّه السيد كارل، أليس كذلك؟

- بلى، وأستطيع ادّعاء إصابتي بصُداع فُجائي مثلاً ثم أذهب إلى غرفتي... ولكن لا؛ فربما يتطوّع بعضهم لمرافقتي وتمريضي، إذن يحسن أن أنسحب إلى غرفتي بهدوء قُبيل موعد تناول الغداء دون أن أكلّم أحداً وإذا سُئلت بعد ذلك أقول إنه الصداع الذي احتجزني.

- من الأفضل أن أقوم أنا بتلك المأمورية؛ فمن السهل عليّ أن أدّعي البحث عن قرص من الأسبرين إذا رآني أحد، أمّا وجود سيّد محترم يعبث في غرفة السيدة برينا فهذا يدعو إلى الاشتباه.

- أتعنين أنه يؤدّي إلى فضيحة؟ وهو كذلك، ولكن يجب الإسراع؛ فمن الواضح أن هناك أنباء سيئة كما علمت اليوم.

ثم تركها تومي وسار حتى مكتب البريد ومنه اتصل هاتفياً بالسيد غرانت، فقال له إن العملية الأخيرة تمت بنجاح وإن "ك" غارق فيها إلى أذنيه، وبعد ذلك كتب تومي إلى ألبرت اشترى إحدى المجلات وعاد إلى سان سوسي. وبينما هو في طريقه إلى المنزل سمع صوت الكوماندور هايدوك المرح يناديه من سيارته الصغيرة ويعرض عليه أن يوصله إلى حيث يريد، فصعد تومي إلى السيارة شاكراً ثم قال هايدوك: سمعت أنك أُصبت بنزلة برد؟

- كانت مجرّد أنفلونزا عارضة، فهي تصيبني في مثل هذا الوقت من كل عام.

- ولكنك الآن أحسن حالاً. هل لك في لعب الغولف؟

- نعم.

- إذن موعدنا غداً في الساعة السادسة؛ فأنا ذاهب في الصباح لحضور اجتماع مقاومة من يهبطون بالمظلاّت؛ فهو واجبي كما تعلم.

- وهو كذلك، وشكراً جزيلاً.

- وكانا قد وصلا إلى أبواب سان سوسي فسأله هايدوك قائلاً: ميدوز، كيف حال شيلا الجميلة؟

- بخير على ما أظنّ؛ فأنا لا أراها كثيراً.

- إنها فتاة جميلة ولكنها نَفور، وأعلم أنها تقابل ذلك الفتى الألماني كثيراً. لقد ضاعت الوطنية! كما أنها فتاة وليست لها حاجة بالمسنين أمثالي وأمثالك، ومع ذلك فهناك شباب من رجالنا على كثير من الرشاقة يُقبِلون على الترفيه عنها، ولكنني لست أدري لماذا تحبّ ذلكَ الفظّ الألماني!

- على رِسْلك؛ فهو قادم.

- لا يهمّني في كثير أو قليل أن يسمع ما أقول، وكم أودّ أن أُلهب ظهر السيد كارل بالسياط؛ فهو أقلّ ألماني يدافع الآن

عن بلاده ولا يتسكّع هنا رُعباً من القتال.

وهكذا اتضحَت وطنية الكوماندور هايدوك، ثم دار بسيارته إلى استراحة المهرّبين. أمّا توبنس فقد وصلَت إلى أبواب سان سوسي الخارجية في الساعة الثانية إلا عشرين دقيقة، فسارت في ممرّات الحديقة حتى وصلَت إلى باب حجرة الانتظار فوقفت لحظة حتى مرّت الخادمة عبر الممرّ، ثم سارعت فصعدت الدرَج بعد أن خلعَت حذاءها ولبست خُفّاً وسارت فوراً إلى حجرة السيدة برينا.

وهناك اعتراها ضيق شديد؛ فتلك العملية التي تقوم بها ليست محبّبة إلى النفس ولكنها عادت فذكرت أنها الحرب، ثم سارت خطوة إلى منضدة الزينة بسرعة وفتحَت جميع الأدراج إلا واحداً وجدَته مغلقاً، ولعله هو المراد. وكان معها بضع أدوات استعارتها من تومي لإنهاء هذه المهمّة، ثم فُتح الدرْج، فوجدت فيه نحو عشرين جنيهاً نقداً وبضع نقود معدنية وحقيبة بها جواهر وحزمة من الأوراق، فراحت تفحصها واحدة تلو أخرى بعجلة؛ فليس لديها فرصة للتأمّل الطويل، ثم رأت عقد شراء سان سوسي وفواتير وحسابات المصرِف وكمّية من الخطابات، ومرّ الوقت سريعاً، فقرأت خطابين من صديق في إيطاليا ولم يكن فيهما شيء، ثم خطاباً من سيمون مورتيمر في لندن وغيره، ثم خطاباً من بات فقرأت فيه: «هذا آخر خطاب أكتبه إليك يا عزيزتي إيلين».

ولم تستطع توبنس متابعة القراءة فأعادت الخطاب

كما كان بعد أن طوَته بعجلة وردّته إلى مكانه في الدُّرج. ثم فُتح الباب ودخلَت السيدة برينا متجهة إلى رفٍّ عليه بضع زجاجات، فدارت توبنس وواجهت صاحبة الغرفة قائلة: السيدة برينا؟ أرجو ألاّ تؤاخذيني. لقد دخلت حجرتك بسبب صُداع عنيف لأبحث عن قرص من الأسبرين؛ فقد ضاعت أنبوبتي وكنت متأكّدة أن لديك من ذلك النوع. لقد سمعتك تقولين ذلك للآنسة منتون.

فشملَت السيدة برينا الغرفة بنظراتها ثم قالت بحدّة: طبعاً، لديّ منه كثير، ولكن على أيّ حال لماذا لم تأت إليّ وتطلبي مني؟

- كان ذلك واجباً، ولكنني أعلم أنكم تتناولون طعام الغداء فلم أرَ من المناسب أن أزعجكم.

فمرّت السيدة برينا أمام توبنس واتجهَت إلى أحد الرفوف فتناولت زجاجة الأسبرين وقالت: كم تريدين؟

أجابت السيدة بلنكنسوب قائلة: يكفيني ثلاثة.

ثم سارت فوراً نحو حجرتها وطلبَت من الخادمة بضع زجاجات من الماء الساخن. وقالت السيدة برينا: أذكر أن لديك كمّية كبيرة من الأسبرين على طاولة الزينة.

- لا أدري أين وضعتها؛ فقد بحثت عنها ولم أجدها.

- إذن اذهبي واستريحي حتى موعد تناول الشاي.

فعادت توبنس إلى غرفتها واستلقَت على سريرها متوقّعة دخول السيدة برينا بين لحظة وأخرى، فرغم أن السيدة برينا قابلت وجود توبنس في غرفتها ببساطة إلاّ أن توبنس حسبت حساب الدُّرج الذي فتحته؛ فهي لم تجد فرصة لإعادة غلقه كما أن الأوراق لم تنظّم كما كانت.

ثم أخذت توبنس تُطَمئن نفسها، فلو شكّت السيدة برينا في اضطراب حاجاتها فستشكّ في الخدم لا في السيدة بلنكنسوب المحترمة، وحتى إذا شكّت فيها فستعتقد أنها ما عبثت في الغرفة إلاّ تحت تأثير حُبّ الاستطلاع المجرّد من الغرض، ولكن إذا كانت السيدة برينا هي تلك الجاسوسة التي يرمزون لها بحرف «م» فلا بدّ أنها سترى في السيدة بلنكنسوب رقيبة عليها. وفجأة تذكّرت توبنس أنها لم تذكر لمخلوق المكان الذي وضعت فيه أنبوبة الأسبرين الخاصّة بها، فقد كانت في الدُّرج الذي تحتفظ فيه بخطاباتها الخاصّة. إذن لا بدّ أن هناك من يعبث بغرفتها، ودَقّة بدَقّة!

* * *

الفصل السابع

سافرت السيدة سبروت في اليوم التالي إلى لندن وتركت بتي في عناية سان سوسي بعد أن نبّهَت على الطفلة بعدم إزعاج أهل الدار، وتعلّقت بتي بتوبنس لتلاعبها، وقد منعت الأمطار الشديدة خروجهما للنزهة فلجأتا إلى حجرة نوم الفتاة واتجهت بتي إلى حيث تحتفظ بلعبها فسألتها توبنس أيّ تلك اللعب تفضّل فقالت بتي: احكي لي حكاية.

وجذبت توبنس أحد الكتب ولكن الطفلة صاحت: لا، لا؛ هذا قذر.

فعجبت توبنس ونظرت إلى عنوان الكتاب ثم سالت بتي: هل تعجبك «أحلام سندريلا»؟

- لا، إنه قذر.

وتناولت بتي الكتاب وأعادته إلى مكانه وسحبت كتاباً آخر من نهاية الرّف وكان بنفس العنوان، فأدركت توبنس أن الكتب القديمة أُهملت وأن السيدة سبروت اشترت مجموعة جديدة للطفلة وأنها من تلك الأمّهات اللائي يتطيّرن من

القذارة ويخشين على أطفالهن من عواقبها. وأخذت بتي تعبث بالكتاب، ثم أعادته وتناولت غيره ثم غيره، وكانت بتي تختطف الكتب من توبنس وتخفيها وتحاول هذه العثور عليها، وهكذا انقضى الصباح دون أن تشعرا بمرور الوقت.

وبعد الغداء ذهبت بتي إلى سريرها واستدعت السيدة أوروك توبنس إلى غرفتها، وكانت غرفةً ضلّ النظام طريقه إليها، تفوح فيها روائح النعناع والنفتالين وانتشرت فيها الصور بغير نظام، صور أبناء وأخوة وأبناء أخوة السيدة أروك، حتى خُيّل لتوبنس أنها في معرض للصور أُقيم في العصر الفيكتوري. قالت السيدة أوروك: إن لك طريقة عجيبة في معاملة الأطفال يا سيدة بلنكنسوب!

- ذلك يرجع إلى طول المدّة التي ربّيت فيها ولديّ.

- ولديك؟ سمعت أنهم ثلاثة.

- أجل، إنهم ثلاثة، ولكنني أعني ولديّ المتقاربين في السنّ، فقد كنت أقوم بتربيتهما وهما في هذه السنّ تقريباً معاً، وهذا ما قصدته.

- نعم، فهمت. اجلسي يا سيدة بلنكنسوب واعتبري نفسك في غرفتك.

وشعرت توبنس بنوع من الضيق الذي يشعر به المرء وهو في زيارة إحدى الساحرات، ثم قالت السيدة أوروك أخيراً: والآن يا عزيزتي، ما رأيك في سان سوسي؟

فأجابت توبنس بكلام عام، ولكن السيدة أوروك قاطعتها بقولها: أودّ أن أسألك ما إذا كنت قد لاحظت شيئاً غريباً في سان سوسي.

- شيئاً غريباً؟ لا، لم ألاحظ.

- ولا عن السيدة برينا؟ فقد أدركت أنك تراقبينها، بل تشدّدين الرقابة عليها.

فاحمرّ وجه توبنس ولكنها تمالكت نفسها وقالت: إنها... إنها سيدة حلوة العِشرة.

- إذن هي ليست... أعني أنها سيّدة مجتمعات إذا كان الظاهر كالباطن، ولكن إذا لم تكن فهل يكون هذا رأيك؟

- الواقع يا سيدة أوروك أنني لا أفهم! سيدة مجتمعات... الظاهر والباطن... لم تكن! ماذا تعنين بهذه العبارات؟

- ألم يخطر ببالك يوماً أن أية واحدة منا قد تكون فعلاً خلاف ما تتظاهر به أمام الناس؟ فالسيد ميدوز مثلاً يبدو لي أنه رجل غريب التصرّفات، فأحياناً أراه يمثّل الرجل الإنكليزي الغبيّ المحدود الأفق وأحياناً أسمع منه كلمة أو أرى منه ما يدلّ على أنه أبعد الناس عن الغباء. ألا ترين في هذا غرابة؟

فأجابت توبنس بحزم: أنا لا أرى في السيد ميدوز إلا نموذجاً للرجل العادي.

- إذن هناك غيره، وأظن أنك تعرفين واحداً منهم على

الأقل، أليس كذلك؟

فهزّت توبنس رأسها نفياً، فعادت السيدة أوروك تقول: الاسم الذي أقصده يبدأ بحرف الشين.

ولم تستطع توبنس أن تتمالك أعصابها أكثر من ذلك وظهرَت عليها أمارات الغضب؛ فقد خُيّل إليها أنها في موقف استجواب وأن عليها أن تدافع عن شيء عزيز عليها. فقالت بحدّة: إن كنت تقصدين شيلا فهي فتاة طائشة ثائرة، وقد كنا جميعاً كذلك في مثل سنّها.

- لا، لا، ليست هذه من أقصد. هل تعلمين أن اسم الآنسة منتون الأول هو شيرلي.

- أتقصدين الآنسة منتون؟!

- لا، ليس هذا ما أقصد، ولكن...

ولم تستطع توبنس احتمال الموقف أكثر من ذلك، فتلك السيدة تتلاعب بها كما يتلاعب القطّ بالفأر، فقامت توبنس من مكانها واتجهت نحو الشرفة تراقب نزول المطر وقد تضاربت الأفكار في رأسها، فكيف تتخلّص من موقفها هذا؟ بل كيف سمحت لنفسها أن تقع في هذا الشرَك؟ وتوقّف تفكيرها لحظة؛ فقد رأت من خلال النافذة التي يتساقط عليها المطر أوراق الأشجار تنفرج وتظهر من خلالها تلك المرأة التي كانت تحادث كارل فون دينيم منذ أيام، وكانت تتلفّت يمنة ويسرة بعينين جامدتين لا حياة فيهما حتى خُيّل لتوبنس

أنها تمثال يتحرّك، وكانت تنظر إلى نوافذ سان سوسي وليس لنظراتها أيّ معنى، فقالت لنفسها: ربّاه! بل هناك معنى واضح كل الوضوح، فهذه نظرات مجنون!

وطافت برأس توبنس خيالات عديدة منها أن تلك المرأة تمثل الأشباح التي تسكن البيوت المهجورة، ثم استدارت توبنس لتواجه السيدة أوروك وغمغمَت ببضعة ألفاظ، ثم اندفعت سريعاً من باب الحجرة ونزلت الدرَج مسرعة إلى الحديقة إلى الطريق إلى قمّة التلّ، وعندما وصلت كانت المرأة قد اختفَت، فعادت توبنس من جديد إلى الحديقة وأخذت تسير فيها بين الشجيرات غير عابئة بما أصابها من هطول الأمطار. وكانت تقتفي آثار أقدام المرأة الغريبة متوقّعة أن تقودها تلك الآثار إلى حيث اختفت فجأة، وقد قادتها الآثار إلى أبواب المنزل فأحسّت توبنس باختناق لم تدرِ له سبباً وشعرت أن نكبة ما وشيكة الوقوع، ولكنها لم تستطع أن تخمّن ما هي تلك النكبة، وما كان يخطر ببال مخلوق أن يخمّن.

وبعد أن أصبح الجوّ صحواً وانقطع هطول الأمطار ساعدت الآنسة منتون بتي على ارتداء ملابس الخروج استعداداً لنزهة في المدينة القريبة ولتشتري الآنسة منتون لبتي إوزة من البلاستيك، وكانت بتي تصيح في أرجاء الدار فرِحة.

ولاحظت توبنس عندما دخلت من باب المنزل أن هناك

عودَين من الثقاب قد أُلقيا على المنضدة التي تتوسّط الردهة الخارجية بغير عناية فعرفت أن السيد ميدوز يقضي وقته في مراقبة السيدة بريتا، ثم اتجهت توبنس إلى حجرة الانتظار فوجدت السيد والسيدة كايلي، وكان زوجها في حالة يُرثى لها، يشكو من الضجيج الذي تحدِثه الطفلة ويقول إنه لم يأت إلى سان سوسي إلا هرباً من الضجيج، فقالت توبنس: من الصعب التحكّم في الأطفال وهم في هذه السنّ.

- هذا كلام لا معنى له، فآفة العصر الحديث أن يُترك الأطفال يعبثون كما يحلو لهم.

فقالت توبنس لتغيّر مجرى الحديث: أودّ أن تحدّثني عن رأيك الخاص في طرق المعيشة في ألمانيا، فقد سمعت أنك قمتَ برحلات إلى بلاد كثيرة.

- أنا كما تقولين يا سيدتي العزيزة رجل ذو تجارب وخبرة، وفي رأيي أنه يجب أن تتفاهم بريطانيا وألمانيا؛ فالنظام النازي في رأيي هو خير الأنظمة الإصلاحيّة للبلدين.

وقطع الحديث دخول الآنسة منتون تتبعها الطفلة حاملة إوزّتها الجديدة، وما هي إلا لحظات حتى أُعدّ الشاي، وفي تلك الفترة شوهدت السيدة سبروت داخلة بعد عودتها من لندن وهي تقول: أرجو ألاّ تكون بتي قد أزعجت أحداً.

ثم وجّهت الحديث للطفلة قائلة: كيف قضيت الوقت يا بتي؟

- قذر!

ولم يعلّق أحد على ردّ الطفلة؛ فقد كان مفهوماً أنها لا تعني ما تقول، ثم أخذت السيدة سبروت تتحدّث عن مشترياتها من لندن خلال احتسائها الشاي، ثم انتقل الجميع إلى الشرفة حيث بدأت الشمس تتسرّب من تحت الغمام، وكانت بتي تملأ الجوّ مرحاً بدعابتها وجريها في كل مكان. واستمرّ الحال كذلك والنزلاء يتحدّثون عن الإشاعات وما يُنتظر أن يحدث حتى قطعت السيدة سبروت الحديث فجأة قائلة: يا إلهي! الساعة الآن السابعة، كان يجب أن تنام الطفلة منذ ساعات. بتي، بتي!

ولم يكن أحد يلحظ غياب الطفلة في أثناء الحديث، ثم عادت السيدة سبروت تصيح وقد تزايد قلقها: بتي، أين أنت؟

وقامت السيدة سبروت تبحث عن الطفلة، فقالت السيدة منتون إن الطفلة لا بدّ أن تكون في مكان ما، وقالت توبنس: لا بدّ أنها اختبأت في المطبخ؛ فقد كان أطفالي يختبئون فيه.

وجرى البحث في كل مكان ولكن دون جدوى، فقد اختفت الطفلة اختفاء تامّاً، فظهر الغضب على وجه سبروت وقالت: ربما تكون قد خرجت من المنزل!

فخرجت توبنس مع السيدة سبروت ووقفتا تتلفّتان هنا وهناك، ولكنهما لم يريا سوى صبيّ على دراجة يحادث خادمة المنزل المواجه لسان سوسي، فتقدّمت توبنس نحو

الصبيّ وسألته ما إذا كان قد رأى طفلة صغيرة تخرج من المنزل، فأجابت الخادمة: هل تلبس فستاناً قصيراً أخضر اللون؟ لقد رأيتها منذ نحو نصف الساعة تسير في هذا الطريق مع سيّدة.

- سيّدة! أيّ سيّدة؟

- هي سيّدة غريبة الهيئة وعلى كتفيها شال رخيص فخُيّل إليّ أنها إحدى المتسوّلات، وأذكر أنني رأيتها أكثر من مرة تحوم حول هذا المكان.

فتذكّرت توبنس فوراً ذلك الوجه الذي رأته يتلصّص بعد الظهر في الحديقة ولكنها لم تكن ترى علاقة بينه وبين بتي، ولم تترك السيدة سبروت لها فرصة للتفكير أكثر من ذلك فصاحت قائلة: بتي! عزيزتي بتي! طفلتي! لا بدّ أن تكون تلك المرأة إحدى الغجريات!

فردّت توبنس على الفور قائلة: لا، لا. إنّ وجهها لا يدلّ على ذلك؛ فهي جميلة ولا يمكن أن تكون من الغجريات.

فنظرت إليها السيدة سبروت بعَجب ودهشة مستفسرة فقالت توبنس: لقد رأيت تلك المرأة بعد ظهر اليوم تتلصّص من خلال شجيرات الحديقة، كما أذكر أنني لمحتها مرة قبل ذلك تحادث كارل فون دينيم. أجل، لا بدّ أن تكون نفس المرأة.

فقالت الخادمة تؤكد كلام توبنس: أجل، أجل، هي

نفس المرأة. أنا لا أنسى شعرها الأشقر.

فصاحت السيدة سبروت: يا إلهي! ماذا أفعل؟!

فقالت توبنس وهي تضع ذراعها في ذراع السيدة سبروت: تعالَي إلى المنزل لنطلب الشرطة.

فسارت السيدة سبروت معها وهي تقول: لا أدري كيف رضيَت بتي أن تسير هكذا مع الغرباء دون أن تصيح!

- إنها صغيرة كما تعلمين، وقد تكون المرأة مخبولة.

وكانت توبنس تقول هذا لتخفّف وقع الصدمة على السيدة سبروت، لكنها كانت تعلم أن المرأة الغريبة في كامل قوَاها العقلية، وقد شكّت في أن يكون لكارل علاقة بحادث الاختطاف هذا، ثم تبدّدت شكوكها عندما أقسم كارل أنه لا علم له بأيّ شيء عن هذا الموضوع ودهش لذلك كما دهش الجميع. وبعد أن شرحت توبنس كل ما تعلم قال الميجور بلتشلي موجّهاً حديثه للسيدة سبروت: لا تقلقي يا سيدتي، سأذهب حالاً إلى مركز الشرطة.

فقالت السيدة سبروت: انتظر لحظة فقد تكون هناك.

وجرت مسرعة إلى غرفة بتي، ثم عادت وهي تلهث وهجمت على الميجور بلتشلي فخطفَت سمّاعة الهاتف من يده وهي تقول: لا، لا تبلغ الشرطة.

ثم تهاوت على أحد المقاعد وهي تبكي، فالتفّ الجميع

حولها يحاولون تهدئتها وقد اشتدّ بهم العجب، وبعد لحظات قالت بصوت تخنقه العبرات وهي ترفع شيئاً في يدها: وجدت هذه في حجرتي، كانت مربوطة إلى قطعة من الحجَر. هذه إنذار لي.

فتناول السيد ميدوز الورقة وقرأ فيها: لقد وضعنا يدنا على طفلتك وسنخبرك فيما بعد بما تفعلينه، ولكنك إذا اتصلت بالشرطة سنقتل الطفلة. أغلقي فمك وانتظري تعليماتنا، وإلا...

وكانت موقَّعة بجمجمة وعظمتين متقاطعتين، فتكلّم الجميع في نفس الوقت: القتلة المتوحّشون، الوحوش!

ولكن صوت الميجور بلتشلي علا جميع الأصوات وهو يقول: كلام فارغ! مستحيل. يجب أن أطلب الشرطة حالاً؛ فهي وحدها التي تستطيع أن تضع حدّاً لهذه المهزلة.

ثم تحرّك مرة ثانية متّجهاً إلى آلة الهاتف، ولكن السيدة سبروت صرخت فصاح بها: يا سيدتي العزيزة، لا بدّ من ذلك، فما هذا الإنذار إلاّ حيلة مبتذلة لمنعنا من اقتفاء أثر الخاطفين السفلة.

- سيقتلونها.

- مستحيل؛ فهم لا يجرؤون.

- أنا لا أسمح؛ فأنا أمّها وأنا التي أقرّر.

- أنا أشعر بك، ولكن استمعي إلى نصيحتي يا سيدتي.

طلب الشرطة هو الحلّ الوحيد، ألا توافقني الرأي يا سيد ميدوز؟

فهزّ تومي رأسه إيجاباً فعاد بلتشلي يقول: وأنتَ يا كايلي، هل توافق؟ إذن انظري يا سيدة سبروت، ميدوز وكايلي يوافقانني.

- أجل؛ فكلّكم رجال... اسأل السيدات.

فقالت توبنس على الفور: أنا مع السيدة سبروت.

وقالت السيدة أوروك: لن تجد أمّاً واحدة توافقك يا سيدي.

فعادت توبنس تقول: وأنتَ يا سيد كارل؟ نحن لم نسمع رأيك بعد.

فأجاب كارل بتؤدة: أنا أجنبي كما تعلمون، ولا أعلم شيئاً عن نظام شرطتكم وما إذا كانت جديرة بهذه المهمّة أم لا.

وفي تلك اللحظة دخلت السيدة برينا فسألت: ماذا حدث؟

وسمعت القصّة من الجميع فقالت بلهجة آمرة وكأنها سيّدة الموقف: أنا لا أوافق على الالتجاء إلى الشرطة مطلقاً لأن طُرقها عقيمة ملتوية، ولكنني أرى أن تبحثوا عن الطفلة بأنفسكم.

فقال بلتشلي: هذه فكرة. هيا بنا، ولا أعتقد أنهم ابتعدوا كثيراً.

فقالت السيدة سبروت: نريد سيارة. لنتصل بهايدوك هوفن؛ فلديه سيارة. هيا بنا، وسنستطيع اقتفاء أثر تلك المرأة بلا شك، وسآتي معكم.

-لا يا سيدتي، لا حاجة لمجيئك. اتركي الأمر لنا.

وفي ثوانٍ اتصلوا بهايدوك فحضر بسيارته على الفور، وجلس تومي إلى جواره وجلس الميجور بلتشلي والسيدة سبروت وتوبنس في المقعد الخلفي، وقبل أن تتحرّك السيارة عادت السيدة سبروت إلى المنزل فغابت لحظة ثم رجعت، ولما استفسرت منها توبنس عن سبب صعودها فتحت حقيبة يدها وأرتها مسدّساً صغيراً وقالت: أتيت بهذا من غرفة الميجور بلتشلي، وكنت قد سمعت منه يوماً أن لديه مسدّساً وأعتقد أنه يفيدنا الآن.

وتفكّرت توبنس في عواطف الأمومة، فالمرأة قد تجزع عندما ترى سلاحاً ولكنها لن تتوانى عن استعماله إذا هدّد فلذة كبدها خطر. وسارت السيارة إلى محطة السكك الحديدية كما اقترح الكوماندور هايدوك؛ فقد قام قطار منذ عشرين دقيقة ويرجّح أن يكون الخاطفون قد ركبوه، وعندما وصلوا إلى المحطة بدؤوا تحرّياتهم كلٌ في جهة، ثم عاد الجميع إلى السيارة دون جدوى، فقال هايدوك: لا بدّ أن الخاطفين كانوا قد أعدّوا سيارة وأرسلوا تلك المرأة لتختطف الطفلة ثم ذهبوا

بها إلى مكان مجهول.

فقالت توبنس: إذن لنضع أنفسنا في مكان الخاطفين، فأين تظنّون أنهم كانوا ينتظرون بالسيارة؟ لا بدّ أنه انتظروا في مكان ما قريب من سان سوسي، ولكن أيّ مكان يصلح لإخفاء سيارة لا تجتذب الأنظار؟ لنرَ. لقد سارت المرأة مع بيتي وانحدرتا مع التلّ، وهناك في بطن التلّ مكان يصلح لمثل ذلك.

وفي تلك اللحظة تقدّم إليهم رجل قصير القامة يبدو عليه التردّد والإحجام يعرج قليلاً في مشيته وقال: لا تؤاخذوني فقد استمعت إلى حديث السيدة وهي صُدفة غريبة حيث يخيّل إليّ أنني رأيت الطفلة التي يسأل بوّاب المحطة عنها.

فصاحت السيدة سبروت: أتقول إنك رأيتها؟ أين؟!

- كانت مع سيّدة غريبة المنظر.

- في أي اتجاه سارتا؟

- في هذا الاتجاه، تجاه القمّة.

فقال هايدوك وهو يجلس إلى عجلة القيادة ويدير المحرّك: هل تقول إنها كانت تسير تجاه القمّة؟

- نعم، عبر الميدان الكبير.

فقفز الباقون في السيارة قبل أن يكملوا الاستماع إلى بقية حديث الرجل، وسارت السيارة مسرعة في شوارع البلدة

حتى وصلت إلى ميدان فسيح، وهناك قال الميجور بلتشلي: الأفضل أن ننزل هنا ونصعد إلى القمّة سيراً على الأقدام.

فأجاب هايدوك: هذا معقول جداً، ولكنني سأبذل جهدي لأصعد المنحدر بالسيارة، رغم أن في ذلك مخاطرة ولكن...

فقاطعته السيدة سبروت قائلة: أجل، أجل، أرجو أن تصعد؛ فقد تأخّرنا ويجب أن نُسرع حتى نلحق بهما.

فقال الكوماندور كما لو كان يحادث نفسه: أرجو أن نكون وراء أثر صحيح، لا أن يكون ذلك القزم قد رأى امرأة أخرى معها طفلة أخرى، فأنا لا أرى لهما أيّ أثر.

وصعدت السيارة تزحف حتى وصلَت إلى القمّة، ثم أخذت تنحدر فتوقّف هايدوك لحظة وتناول منظاره المعظّم الذي لا يفارقه وأخذ ينظر فيه لحظات في كل اتجاه ثم صاح قائلاً: ها هما. أنا أراهما هناك.

فنظر الجميع إلى حيث يشير. وكانت هناك نقطتان سوداوان في الأفق البعيد تتحرّكان، ثم عادت السيارة تنهب الأرض من جديد وبدأت المطاردة، فرأوا النقطتين تنكشفان رويداً رويداً. هما شبحان، أحدهما طويل والآخر قصير، ثم أخذا يتّضحان قليلاً، سيدة تجرّ وراءها طفلة. أجل، الطفلة ترتدي ثوباً أخضر اللون هي بتي. فصاحت السيدة سبروت وقال الميجور بلتشلي وهو يصفّق: ها نحن قد وصلنا إليهم!

وفجأة شعرت المرأة باقتراب السيارة منها فصرخت ورفعت الطفلة محتضنة إياها وأخذت تجري بها نحو المنحدر، فتوقّفت السيارة لأنها لا تستطيع أن تتبعها في ذلك الطريق الوعر، وخرج ركّاب السيارة منها وكانت السيدة سبروت أولّهم، وبدأت تجري نحوهما حتى أصبحَت على بُعد عشرين خطوة منهما فتوقّفت؛ فقد كانت المرأة ممسكة بالطفلة بين ذراعيها ووقفت على حافّة المنحدر، فصاح هايدوك: يا إلهي! أخشى أن تقذف بالطفلة إلى الهاوية.

ووقفت المرأة وقد تجسّم الحقد في عينيها وصاحت بكلمات لم يفهمها أحد، ثم أخذت تنظر إلى الهاوية حيناً وإلى المهاجمين حيناً آخر، وكان واضحاً أنها تهدّد بقذف الطفلة في الهاوية، فوقف الجميع فزعين وقد أقلقهم الرعب دون أن يستطيعوا الحركة خوفاً من الفاجعة المنتظَرة، ثم وضع هايدوك يده إلى جيبه وأخرج مسدّساً ضخماً وصاح قائلاً: أنزلي الطفلة وإلاّ سأطلق النار.

فضحكَت المرأة الغريبة وزادت في احتضانها للطفلة حتى أصبحتا كأنهما جسد واحد، فغمغم هايدوك: أنا لا أستطيع إطلاق النار خشية أن أصيب الطفلة.

فقال تومي: هذه المرأة مجنونة بلا شكّ، وأتوقّع أن تقفز هي والطفلة إلى الهاوية بعد لحظات.

وفي تلك اللحظة دوّى صوت طلق ناري فترنحت المرأة وسقطت ولا تزال الطفلة بين ذراعيها، فأسرع الرجال إلى

حيث سقطت في حين وقفت السيدة سبروت تترنّح وفي يدها المسدّس يتصاعد الدخان من فوهته، ثم سارت بضع خطوات إلى الأمام. وانحنى تومي فوق الجسدين فرأى وجه المرأة وكانت عيناها مفتوحتَين، وقبل أن تنبس بحرف شهقت الشهقة الأخيرة وتراخت ذراعاها، فتخلّصت منها بيتي وجرت نحو السيدة سبروت التي كانت قد تصلّبت أعضاؤها كأنها تمثال، فرمت المسدّس بعيداً وصاحت وهي تعانق الطفلة قائلة: أنت بخير، بخير! بتي، بتي حبيبتي!

ثم همست بجزع قائلة: هل... هل ماتت؟ هل قتلتها؟

فقالت توبنس بجدّ: لا تفكّري فيها الآن، فكّري في بتي العزيزة.

فأخذت السيدة سبروت تنشج بصوت مبحوح، وسارت توبنس إلى حيث وقف الرجال وكان هايدوك يقول: هذه معجزة دامية، وأعترف أنني لا أستطيع إصابة مثل هذا الهدف، وأنا لا أتصوّر أن السيدة سبروت سبق لها استعمال المسدّس قبل هذه المرّة. إنها معجزة الغريزة لا أكثر ولا أقلّ.

فقالت توبنس: الحمد لله، فقد نجت الطفلة على كل حال.

* * *

الفصل الثامن

بعد أيام بدأ التحقيق في حادث مصرع المرأة الغريبة بعد أن قامت الشرطة بتحرياتها للتحقّق من شخصيتها، فعرفت أنها تُدعى واندا بولونسكا من اللاجئين البولنديين. وكانت السيدة سبروت قد نُقلت بالسيارة إلى سان سوسي بعد وقوع الحادث محطّمة الأعصاب، وقد تعاون الجميع على الترفيه عنها بمختلف الوسائل، ثم اتصل الكوماندور هايدوك بالشرطة وأرشدهم إلى حيث وقعَت المأساة، ولولا اهتمام الصحف بالأخبار الحربية لاحتلّ ذلك الحادث أبرز مكان فيها.

ثم اتخذ التحقيق مجراه العادي، فاستدعيَت السيدة كالمفنت المشرفة على شؤون اللاجئين في تلك المقاطعة فأدلت بمعلوماتها عن واندا بولونسكا، وتتلخّص في أنها كانت من عائلة بولندية قتل النازيون كل أقاربها وأنها كانت شبه مخبولة وأن سلوكها كان موضع شبهة؛ فقد وُجد معها مال كثير بالنسبة إلى مَن في مركزها، وقد ظهر من مراقبتها أنها ليست ممن يضمرون الخير لبريطانيا.

أمّا السيدة سبروت فقد غرقت في دموعها عندما

استدعيَت للتحقيق، وكان المحقق رفيقاً بها، وقد فسّرت ما حدث أنه كان بلا وعي منها. فسألها المحقق عمّا إذا كانت قد اعتادت استعمال الأسلحة النارية فأجابت بالنفي ثم نفت معرفتها بالمرأة القتيلة قبل الحادث.

أما هايدوك فقد أدلى بكل ما قام به في عملية المطاردة، ولما سأله المحقّق عمّا إذا كان متأكّداً من أن المرأة قد بدا عليها نزوع للقفز إلى الهاوية أجاب: قد تكون أرادت ذلك أو على الأقلّ أرادت أن ترمي بالطفلة، فذلك ما اعتقدته، وقد خُيّل إليّ أن الحقد متجسّم في نظراتها، وقد فكّرت شخصياً في إطلاق النار عليها، ولكنها كانت قد اتخذت من الطفلة درعاً فتحمّلت السيدة سبروت المسؤولية وأنقذت الطفلة.

ثم أخذت السيدة سبروت تتشنج من جديد، أمّا شهادة السيدة بلنكنسوب فكانت قصيرة، ولم تخرج عمّا أدلى به الكوماندور، ثم تلا ذلك السيد ميدوز وقد أمّن على الأقوال السابقة.

وبعد انتهاء التحقيق اعتبر المحقّق أن الحادث تمّ تحت تأثير ظروف قاهرة لا حيلة للفاعلة فيها وأن القتل قد وقع فعلاً ولكن دون سبق إصرار أو ترصّد أو حتى تفكير فيه، وهكذا اعتُبرت السيدة سبروت غير متحمّلة مسؤولية ما فعلَت.

* * *

في اليوم التالي تقابل السيد ميدوز والسيدة بلنكنسوب ودار بينهما حديث طويل عن تلك القضية الغريبة التي

فاجأتهما. وقال تومي: مجرى الأحداث لا يعجبني بأيّ حال من الأحوال.

فوافقته توبنس؛ فقد كان الجيش الفرنسي يتراجع دون توقّف، وكان الجلاء عن دنكرك على أشدّه، كما كان سقوط باريس متوقَّعاً في أية لحظة. وقال تومي: وماذا عن كارل فون دينيم والمرأة البولندية؟ هل تعتقدين أنهما كانا يعملان سوياً؟

- لا بدّ أنهما كانا مرتبطَين بطريق ما، ولا تنسَ أنني رأيتهما يتحدّثان. إذن لا بدّ أن يكون كارل قد دبّر الاختطاف.

- لماذا يختطفون تلك الطفلة بالذات؟ ومَن آل سبروت؟ لا أعتقد أنهم من الأغنياء، ثم إنهم ليسو على اتصالات حكومية قد ينتفع بها العدوّ مثلاً.

- أنا أفهم ذلك يا تومي، وبودّي لو كشفت السّر.

- هل تظن أن لدى السيدة سبروت أية فكرة عن سبب الاختطاف؟

- السيدة سبروت ليس لها قدرة على التفكير، وكل ما تقوله هو: هذا هو ما يفعله الألمان بأعدائهم.

- تلك الغبية! هي لا تعلم أن الألمان قوم في غاية الذكاء وأنهم لا يختطفون فأراً إلاّ إذا كان هناك من الأسباب القوية ما يدعو إلى اختطافه.

فقالت توبنس: أعتقد أن السيدة سبروت تستطيع أن تدرك السبب لو أنها فكّرت وحاولت معرفته؛ فلا بدّ أن يكون هناك سبب. أجل، لا بدّ أن تكون هناك معلومات ما دون أن تعلم أن هذه المعلومات هي السبب.

- هل حاولت أن تقنعي السيدة سبروت أو تعملي على تحريك ذهنها بعض الشيء؟

- نعم حاولت ولكن دون جدوى؛ فما يهمّها هو أن بتي عادت إليها، ثم لا تنسَ إحساسها بأنها قد أصبحت قاتلة في نظر نفسها على الأقلّ.

- النساء مخلوقات عجيبة! في لحظة خُيّل إليّ أن السيدة سبروت تستطيع قتل فرقة بأكملها لاستعادة طفلتها، والآن أراها تموت رعباً لمجرّد ذكْر القصّة.

- لقد التمس لها المحقّق العذر.

- كان هذا طبيعياً.

- أعتقد أن عدم إدراك قيمة ونتائج استعمال المسدّس هو الذي دفعها إلى تحريك زناده؛ فلو أنها فكّرت في العواقب المحتملة لما أقدمت على إطلاقه.

- أذكر أن شيئاً كهذا ورد عن النبي داوود.

- أجل، لقد طافت بذهني قصّة مماثلة ثم عُدت فنسيتها في الحال.

- هل كانت القصّة عن المقلاع الذي قذف به داوود ذلك الرجل فأرداه قتيلاً؟

- لا، انتظر لحظة... لقد كانت عن سليمان الحكيم.

- عن معابد سليمان وكنوزه و...

- كفى، كفى؛ أنت تصعّب الأمور علينا. كم أودّ أن أذكر بماذا كان وجه واندا يذكّرني! لقد شعرت عندما رأيتها لأوّل مرة أن وجهها ليس غريباً عليّ.

- هل تعتقدين أنك رأيتها في مكان ما قبل الآن؟

- لا؛ فأنا لم أرَها من قبل، ولكني...

- شيلا برينا وأمّها يختلفان في ملامحهما عن واندا تمام الاختلاف.

- أجل، ومع ذلك فأنا أظنّ يا تومي أن ثمة علاقة بين ذلك الإنذار وآل برينا، ويُخيّل إليّ أن واحدة منهما هي التي وضعته.

- إذن أنت تعتقدين أن آل برينا وكارل ووواندا بولونسكا شركاء، أليس كذلك؟

- بلى، هو كذلك. ألا تذكر اللحظة التي تدخّلت فيها السيدة برينا؟ ألا تذكر أيضاً أنها كانت مع مَن عارض في إبلاغ الشرطة وأنها ملكت زمام الموقف كلّه؟

- أهكذا؟ ألا تزالين تعتبرينها «م»؟

- أنا أعتقد ذلك. ألست من رأيي؟

- ربما.

- لماذا يا تومي؟ هل لديك فكرة أخرى؟ ألا تحدّثني عنها؟

- أفضّل ألاّ أحدّثك عنها في الوقت الحاضر على الأقلّ؛ فتوقّعاتي ما زالت غير مؤكّدة، بل على العكس أعتقد أننا أمسكنا بطرف الخيط الذي يؤدّي إلى «ن» وليس إلى «م» كما تعتقدين، ولهذا أفضّل أن يعمل كل منّا بتوقّعاته منفرداً.

وكان تومي يفكّر ويقول في نفسه: إن بلتشلي شخصية لا غبار عليها، ثم إنه كان متحمّساً لإبلاغ الشرطة، ولكنه في نفس الوقت كان واثقاً من أن أمّ الطفلة لن تقبل، وعلْمه بوجود الإنذار وفهمه لعقلية الأمّ جعلاه على ثقة من النتائج، ومع ذلك فالعكس جائز. على أية حال... ولكن لماذا تختطف بتي سبروت؟!

وعندما انصرفت توبنس متّجهة إلى غرفتها لم تلحظ وقوف سيارة الشرطة بباب سان سوسي؛ فقد كانت غارقة في تأمّلاتها حتى وصلت إلى باب غرفتها، ولكنها فزعت حين خطت الخطوة الأولى وصاحت قائلة: شيلا؟!

فاستدارت الفتاة وواجهت توبنس، وكان الذعر والأسى مرتسمَين على وجهها فقالت: كنت انتظرك يا سيدة

بلنكنسوب... أنا سعيدة لأنك حضرت.

- ما الأمر؟

- لقد قبضوا على كارل.

- مَن؟ الشرطة؟

رَثَت توبنس لحال الفتاة؛ فهي مغرمة بكارل فون دينيم، وحتى لو أن كليهما في نظرها على الأقل متَّهم بالخيانة الوطنية فتقدير عاطفة الحبّ من وجهة النظر الإنسانية أمر لا تستطيع توبنس إلاّ أن تشعر به ولا تغفله، فعادت شيلا تقول: ماذا أفعل؟

وارتجفت توبنس لبساطة السؤال؛ فلم تجد ما تقول سوى أن غمغمت قائلة: آه يا عزيزتي!

- لقد أخذوه، وهكذا لن أراه ثانية! ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟!

وانفجرَت تبكي بحرارة من عُمق قلبها ثم تهاوَت على الفراش، فجلست توبنس إلى جوارها تمسح على رأسها وتقول: ربما لا يجدون شيئاً ضدّه فلا تجزعي، وكل ما في الأمر أنهم سيعتقلونه هو وكل رعايا الأعداء.

- لم يكن هذا ما قالوه، هم يفتشون غرفته الآن.

- لا شك أنهم لن يجدوا فيها ما يؤذيه، أليس كذلك؟

– لن يهمّ الشرطة أن يكون بريئاً أو مذنباً؛ فهم سيلصقون به التهمة.

– هذا خطأ، بل مستحيل. أنت تثقين في الناس يا شيلا وتطمئنين إلى كلامهم أكثر من اللازم، ولعل هذا هو موقفك حيال كارل، ولعلك كنت على خطأ.

– إذن أنت أيضاً ضدّه؟ يا إلهي! لقد ظننتك تميلين إليه بعض الشيء.

– استمعي إليّ يا شيلا، الميل أو عدمه ليس لهما دخل في الوقائع المادّية؛ فهذه البلاد وألمانيا في حالة حرب، وهناك وسائل عديدة يخدم بها المرء وطنه، منها أن يحصل مثلاً على معلومات يرسلها إلى وطنه من خلف الخطوط، وهو عمل فيه كثير من الشجاعة وإنكار الذات، ولكن القانون الدولي لا يعترف به.

– هل تظنين أن كارل...؟

– ربما، ربما كان يخدم وطنه من هذا الطريق. هذا محتمَل، فربما كان عمله أن يأتي إلى هذه البلاد كلاجئ وأن يتظاهر بعدائه الشديد للنازية وبذلك يستطيع أن يحصل على ما يريد من معلومات.

– هذا لا ينطبق على الواقع؛ فأنا أعرف كارل جيّداً، وقد خبرت قلبه كما خبرت عقله الذي لا يفكّر إلاّ في العلم وفي عمله، فهو يشعر أنه مدين لإنكلترا لأنها آوته ومنحته

الفرصة ليعمل فيها، ولو أنه أحياناً -عندما يُهان- يشعر بألمانيته فيتألّم، ولكنه يكره النازيين وما يدعون إليه وخصوصاً إنكارهم لحرّية الفرد.

- هذا ما يقوله مَن كان في مثل مركزه.

- إذن أنت تعتقدين أنه جاسوس؟

- هذا ما أظنه، وهذا مجرّد احتمال.

- إذن فيؤسفني أنني لجأت إليك لمساعدته.

ثم خرجَت الفتاة بعد أن صفقت الباب خلفها.

* * *

رفع الرجل المسنّ صنارته من الماء ثم ارتكز على دفّة القارب وقال: لا شك في ذلك، وأنا أخشى أن يكون...

فأجاب تومي: أجل، ويؤسفني ما حدث؛ فهو شابّ لا بأس به.

- إنهم لا يختارون سوى أمثاله من الشبّان الشجعان لمثل هذه المهامّ، ومع ذلك فقد وجدوا ورقة كتب فيها بالمعادلات الكيمائية أسماء العمّال الذين يعملون تحت إمرته في المصنع والذين يمكن التأثير عليهم، كما عثروا على مذكّرات عن مشروع كيمائي رهيب لتسميم الأغذية، وقد أعدّه السيد كارل.

- ألا يمكن أن تكون تلك الأوراق قد وُضعت له؟

- هذا افتراض زوجتك بلا شكّ، ولكنني شخصياً لا أعتقد في براءته؛ فذلك الحبر السرّي الذي وجدناه في المعمل مخبّأ بحذق ومهارة وتلك المادّة السامّة التي صبّها على هيئة أزرار وكان يذيبها في الماء ثم يبلّل بهذا الماء أربطة الأحذية، تلك المادّة وجدنا المئات منها معلّقة في حجرته لتجفيفها. هذه أدلّة لا تقبل الشكّ.

وعندما عاد تومي ليقصّ على توبنس خلاصة هذا الحديث صاحت قائلة: أربطة أحذية؟ ماذا تقول؟! هذا يفسّر كل شيء.

- ماذا؟

- بتي أيها الغبيّ. ألا تذكر ماذا كانت تفعل في غرفتي؟ فهي عندما حلّت أربطة حذائي وبلّلتها في كوب اللبن ظننت ذلك حينئذ عبث أطفال، ولكنها رأت كارل يفعل ذلك فقلّدَته، ولعله خشي أن تقول الطفلة شيئاً عمّا رأته فاتّفق مع تلك المرأة على اختطاف بتي.

- وهكذا يتضح كل شيء.

- أجل، وكم أودّ أن تنكشف لنا باقي الأمور؛ فالأحوال الحربية العامّة في غاية الخطورة وكل سواحل فرنسا أصبحَت في أيدي العدوّ وأصبح الغزو قريب الحدوث.

- لقد كان كارل حلقة في السلسلة، ولعل السيدة برينا هي الرأس المدبّر.

- أجل، ولكننا لم نجد ما يدينها.

- إنها ليست من الغباء بحيث ترمي نفسها بين أيدينا.

- وعلى ذلك يمكننا اعتبارها «م».

فهزّ تومي رأسه موافقاً فقالت: إذن فعلينا أن نتابع مراقبتها وعليك الاتصال بألبرت.

- اتصلي أنت به؛ فأنا ذاهب للعب الغولف.

* * *

الفصل التاسع

- يُخيّل إليّ أن الأيام الماضية قد عادت من جديد يا سيدتي.

- أرجو ذلك يا ألبرت. وكيف حال زوجتك؟

- إنها بخير كما تعلمين، وهي عند أقاربها في ويلز الآن.

- أتمنى ألاّ يكون اشتراكك معنا في العمل يعطّل أعمالك الخاصّة.

- إطلاقاً يا سيدتي، فكم كنت أودّ العودة معكما من جديد ولكن الظروف لم تسمح من ناحيتكما، وقد حاولت في إدارة المباحث وفي إدارة الأمن العام فاحتجّوا بكبَر سنّي وقالوا لي: انتظر فقد نحتاج إليك.

- منطقهم غريب! وقد قاسينا منه يا ألبرت.

- أعتقد أن هذه فرصتنا للعمل ضدّ هؤلاء الألمان الملعونين، وأرجو أن تعذريني على هذا الوصف يا سيدتي.

- حسناً يا ألبرت، والآن سأُفهِمك ما أريد أن تقوم به.

* * *

كانت كرة الغولف تجري في طريقها وسط الملعب عندما سأل تومي الكوماندور هايدوك قائلاً: منذ متى تعرّفت إلى بلتشلي يا هايدوك؟

- بلتشلي؟ دعني أتذكّر. نعم، منذ نحو تسعة شهور، كما أذكر أنه أتى إلى هذه المنطقة في الخريف الماضي.

- لقد قلتَ إنه صديق لأحد أصدقائك.

- هل قلت أنا ذلك؟ لا أظن؛ فأنا أذكر أنني قابلته هنا في النادي.

- إنه شخص يحيط نفسه بالأسرار على ما أرى.

- أسرار؟ بلتشلي العجوز؟! هذا أغرب وصف للرجل، فلو قلتَ إنه رجل عسكريّ التفكير أو ما شابه كنت أوافقك، ولكن وصفك هذا...

- لعلي وصفته هذا الوصف نتيجة لما سمعته عنه من بعضهم.

- ماذا تعني؟

- لا شيء، هذا مجرّد حديث عابر سمعته.

- كل ما علمته عنه أنه كان في فرقة الهوزار.

- هل أنت واثق؟

- أنا؟ لا، لست متأكّداً. ولكن حدّثني يا ميدوز، هل علمتَ عنه أمراً؟

- لا، فقط...

- أكاد أدركُ ما تعني. أتقصد أن أحداً لا يعلم شيئاً عن ماضيه وأنه منذ نزل بهذه المنطقة لم يتّصل به مخلوق ولم يتّصل هو بأحد فيما أعلم؟

- هل ترى أن نواصل اللعب؟

ثم اتخذ كل منهما موقفه الجديد في ساحة اللعب، وبعد جولة عاد هايدوك يسأل قائلاً: ماذا سمعتَ عنه؟

- لا شيء.

- لا حاجة بك إلى كل هذا التحفّظ معي يا ميدوز. لقد تعوّدت الاستماع إلى مختلف الإشاعات وأنا أكاد أخمّن المسألة. هل يخفي بلتشلي حقيقته ويظهر لنا بغيرها؟

- هذا مجرّد فرض.

- ماذا يفترضون؟ أنه ألماني؟ هذا مستحيل.

- أجل، فهذه الناحية لا غبار عليها.

- ثم لا تنسَ كيف كان متحمّساً للقبض على ذلك الفتى الألماني، وكيف صرّح عدّة مرّات بوجوب شنقه. وقد كنت

أوافقه على رأيه كل الموافقة؛ فقد سمعت أن ذلك الفتى أعدّ مشروعاً لتسميم مياه الشرب في هذه المنطقة. ذلك الوغد الذي كان يعيش بيننا نكرمه ونحسن استقباله!

فأسف تومي كل الأسف على الفرصة التي ضاعت منه والتي كان قد أعدّها لاستدراج الكوماندور إلى هذا الحديث؛ فقد انضمّ إليهما في تلك اللحظة بعض أعضاء النادي وعرضوا عليهما الذهاب إلى النادي لتناول المشروبات. وبعد أن جلسوا جميعاً بعض الوقت قال هايدوك بعد أن نظر إلى ساعته: أرجو قبول عذرنا يا سادة؛ فنحن، ميدوز وأنا، على موعد.

وأمّن تومي على قوله فخرجا، ووافق تومي أن يتناول عشاءه مع الكوماندور في استراحة المهرّبين. وقام بخدمتهما خلال تناول الطعام خادم في منتصف العمر كان يؤدّي واجبه كما لو كان في أعظم مطاعم لندن، واغتنم تومي فرصة خروجه من الحجرة فأبدى إعجابه به، فقال الكوماندور: أجل، أنا سعيد الحظّ لأني عثرت على آبل دور.

- وكيف عثرتَ عليه؟

- أعلنت عن حاجتي لخادم له خبرة، فكان هو أوّل من أجاب الإعلان وقدّم لي شهادات من مخدوميه السابقين.

وحين كانا يحتسيان القهوة قال تومي: ماذا كنتَ تقول عندما كنا نتحدّث عن بلتشلي؟

- ماذا كنت أقول؟... آه، أترى تلك الأضواء التي تلوح في

البحر؟ أين منظاري؟ أنا أعتقد أن هذه بوادر الغزو.

وبدأ تومي يتتبع الأضواء، واستطرد هايدوك يقول: ها هم أولاء يسيرون من نصر إلى نصر، ونحن ماذا نفعل؟ نحتسي العصائر ونتحدّث عن الخدم!

وكان آبل دور قد دخل ومعه زجاجة من عصير البرتقال وبعض الأكواب.

وراح تومي يراقب الرجل وهو يملأ كأسه، وقال في نفسه: كان يجدُر أن يسمّى هذا الساقي فريتز لا آبل دور؛ فهيئته وملامحه أقرب إلى الهيئة الألمانية من أيّ هيئة أخرى، أمّا طريقة نطقه اللغة الإنكليزية فلا شكّ أنه تعلّمها من طول إقامته في البلاد.

ثم أخذ يمعن في التأمّل في الخادم ويقول لنفسه: ترى أين رأيت هذا الرأس وهذا الوجه قبل الآن؟

وكان الكوماندور يقول: أجل، نحن نتحدّث في موضوعات تافهة، ومن وقت إلى آخر يطلبون منّا ملء تلك الأوراق السخيفة التي تختصّ بعضها بتحقيق الشخصية والبعض الآخر بالتموين وبعضها...

- تلك الأوراق التي يسألوننا فيها عن أسناننا ثم عن أسمائنا ويقول لك الموظف المختصّ بشراسة: انطق، ما اسمك؟ تكلّم، «ن» أم «م»؟!

فقفزَت زجاجة العصير من يد الخادم المتمرّس وانتثرَت

محتوياتها على قميص تومي ثم سقطت على الأرض، فارتجف الساقي وأخذ يقول متلعثماً: آسف يا سيدي، آسف!

وانفجر غضب هايدوك وصاح قائلاً: ما هذا الذي فعلتَ أيها الغبي المخبول؟

واستمرّ آبل دور في اعتذاراته المتكرّرة وهو يجمع الأدوات المبعثرة فتأثّر تومي لحاله، وفجأة عاودت الرقّة الكوماندور فقال لتومي: تعالَ لتغسل يديك.

وقام الرجلان إلى الحمّام ذي الأجهزة العصرية الحديثة، ودخل تومي الحمّام ليغسل يديه في حين وقف الكوماندور في غرفة النوم المجاورة يقول: لعلي أغلظت القول يا تومي للخادم، ولكن اعذرني فقد ضايقني ما حدث.

وغسل تومي يديه ثم وقف يجفّفهما ولم يلحظ أن قطعة من الصابون انزلقت على أرض الحمام الملساء، فعندما استدار ليخرج عثرَت قدمه بها فانفرجَت رجلاه كما لو كان أحد الراقصين، كما اصطدمَت إحدى يديه بصنبور الماء واصطدمَت الأخرى بباب آخر في الحمّام وانزلقت قدمه حتى صدمت المغطس، وفي طرفة عين انكشف الحائط عن مخبأ غريب به جهاز لاسلكي ضخم.

وفي تلك اللحظة نفسها توقّف صوت الكوماندور عن الحديث وظهر واقفاً بباب الحمّام، وفي نفس اللحظة أيضاً لمعَت أضواء في ذهن تومي ووُضعَت كثيراً من الأمور في

نصابها وقال لنفسه: هل كنت أعمى حتى تلك اللحظة؟ ألم يكن هذا الوجه الإنكليزي العادي سوى قناع؟ لماذا لم أشعر أن هذا القناع يخفي وراءه صفات الضابط البروسي الفظّ؟ هذا الذي لا يغفر خطيئة لأحد مرؤوسيه. لقد وضح ذلك عندما سقط الشراب من يد الخادم المرتعش، ذلك الساقي الغبيّ الذي لم يحتمل صدمة ذلك السؤال.

وهكذا تتالت تلك الاستنتاجات على رأس تومي وتداعت المعاني. لقد أرسل العدوّ رسوله الأوّل هاهن فأعدّ المكان واستخدم عمّالاً أجانب دون أن يهتمّ بلفت الأنظار إليه حتى يتمّ العمل، ثم يتدخّل رجل من كبار رجال البحرية الإنكليزية المتقاعدين لا ترقى إليه الشبهات، وهو الكوماندور هايدوك، فيكشف سرّ ذلك الرجل، ومن الطبيعي جداً أن يتقدّم لشراء المكان ويدور ويتحدّث عن القصّة حتى يضيق بها من يستمع إليها، وهكذا استقرّ «ن» في مركزه المعَدّ له في كل مكان على ساحل البلاد وتحت أمره كل الوسائل الميسّرة للاتصال بالخارج عن طريق الأجهزة التي أُخفيَت بمهارة وحذق، أو عن طريق مساعديه المنتشرين في كل مكان داخل البلاد، وخصوصاً في سان سوسي، مركز قيادته.

ولم يستطع تومي أن يخفي إعجابه بإحكام الخطة؛ فهو لم يتطرّق إليه أيّ شكّ في الرجل، ولولا تلك الحادثة غير المتوقّعة ما انكشفت الأمور له على هذا النحو. وقد طافت هذه الأفكار جميعها في ذهن تومي في ثوان معدودة أدرك بعدها أن موقفه أصبح في غاية الخطورة وأن عليه تمثيل دور الإنكليزي

الغبيّ علّه ينجو بنفسه، فتمالك نفسه وعدّل ملابسه وجمع ما سقط من جيوبه ثم قال موجّهاً حديثه للعملاق المنتصب بباب الحمّام بعد أن رسم على شفتيه ابتسامة ركّز فيها كل ما استطاع من بلاهة: يا للعجب! حقاً إن ما نراه في منزلك من الغرائب يثير الدهشة. هل هذا أحد أجهزة هاهن الغريبة؟

وكان هايدوك قد وقف بالباب دون أن يتحرّك، وقد خُيّل لتومي أنه انتفخ حتى ملأ فراغ الباب كلّه، فسرَت في بدنه قشعريرة وأحسّ بالعرق البارد يغمره، كما تذكّر أن هناك الخادم أيضاً، ومن يدري؟

وقطع تيّارَ أفكاره صوتُ هايدوك يقول ضاحكاً: هذا أمر مثير للضحك يا ميدوز. لقد قفزتَ في الهواء كأبرع الراقصين، ولست أعتقد أن حركة كهذه تحدث للمرء مرتين في العمر. جفّف يديك وتعالَ إلى الغرفة الأخرى.

وتبعه تومي وهو في غاية اليقظة لأقلّ حركة أو بادرة؛ فعليه أن يخرج سالماً من هذا المكان وفي الحال بأيّ ثمن، ثم امتدّت يد هايدوك إلى كتف تومي بحركة قد تكون طبيعية وقد لا تكون، وقاده إلى غرفة الاستقبال، فدخل أولاً وتبعه هايدوك الذي لم ينسَ أن يغلق الباب خلفه. ثم قال بصوت طبيعي وهو يشير إلى تومي بالجلوس: لديّ ما أقوله لك أيها الطفل العجوز، وهو موضوع غريب ولن أقوله لك إلاّ لأنك موضع ثقتي، وعليك أن تنساه مباشرة يا ميدوز. هل تفهم ما أعني؟

فأعمَل تومي جهده ليظهر بمظهر المتشوّق لسماع الحديث في حين سحب هايدوك مقعده فقرّبه إلى حيث جلس تومي ثم قال: المسألة يا ميدوز لم ولن يدركها أحد مطلقاً. أنا أعمل في قلم المخابرات.

فهزّ تومي رأسه نفياً وزاد من تصوير تشوّقه فاستطرد هايدوك قائلاً: هذا سرّ في غاية الخطورة، بل هو من أسرار الدولة العليا يا ميدوز؛ فنحن نُرسِل من هنا بعض الإشارات السّرية، وأكرّر القول إنه سرّ في غاية الخطورة، بل هو سّر مميت لو عُرف. أتفهم ما أعني؟

- أجل، أجل، ما أغرب هذا! ثِقْ أنني سأنسى هذا الحديث.

- يكفي ما علمتَ، فالأمر كما ذكرت لك في غاية الخطورة.

- أجل، أجل، وأنا أعتذر إليك. ولكن الحادث كلّه لم يكن متوقّعاً!

وكان تومي يحسب لكل كلمة يقولها ألف حساب؛ فهو لم يكن يتوقّع أن يصدّق الكوماندور اصطناعه البلاهة، ولكنه لم يجد سواها باباً يحتمل أن يخرج منه. وكان يعتمد على أن الغرور صفة من صفات أغلب الرجال أمثال هايدوك الذي يظنّ نفسه أذكى من سائر المخلوقات وأنه تبعاً لذلك يعتبر السيد ميدوز هذا رجلاً إنكليزياً غبياً يصدّق كل ما يُقال له.

فاستمرّ تومي يتكلّم مُظهِراً إعجابه ودهشته دون أن يلقي سؤالاً واحداً على الكوماندور الذي أخذ بدوره يتكلّم ببساطة البحّار الإنكليزي. واختفى الضابط البروسي الفظّ خلف القناع، ولكن تومي كان يراقبه بعين جديدة على ضوء ما اكتشف.

وبعد هنيهة وقف ميدوز وقال: لقد تأخّرت كثيراً ويحسُن بي أن أذهب الآن، وأعِدُك ألاّ أفتح فمي بما رأيت أو علمت، كما أعتذر إليك عمّا حدث؛ فقد كان بمحض الصدفة.

وكان يقول في نفسه: هل سيسمح لي بالخروج؟

ثم اتجه نحو الباب ثم سار في الردهة وأصبح على خطوات من الباب الخارجي، فلمح على يمينه آبل دور في غرفة يُعِدّ أدوات المائدة للصباح التالي. إذن الأمور تسير كما يهوى وسيتركه الأغبياء يخرج بالسّر الخطير.

ووقف الرجلان، هايدوك وميدوز، بالباب الخارجي يحدّدان موعداً لمباراة الغولف على أرض النادي يوم السبت المقبل، ثم سمعا أصواتاً قادمة في الطريق، وكانا رجلين من أعضاء النادي يعرفانهما معرفة سطحية، فلمّا رأيا الكوماندور وأشار إليهما ميدوز بالتحية توقّفا وتبادل الجميع بعض الحديث. ثم استأذن تومي من الكوماندور وسار في طريقه إلى سان سوسي بصحبة الرجلين اللذَين سارا في نفس الاتجاه.

ها هو ذا قد أصبح طليقاً بعد أن انكشف له السرّ الخطير وسقط هايدوك الغبي في الفخّ دون أن يشعر. ثم توالت أفكار

تومي في كل اتجاه. ما الذي سيحدثه اكتشافه هذا؟ لا شكّ أنه سيهزّ إدارة المخابرات هزّاً عنيفاً. ووصل إلى أبواب سان سوسي فحيّا زميليه في الطريق، ثم سار في الممرّ يصفر لحناً، وما إن استدار في المنعطف المظلم الذي يؤدّي إلى الدرَج حتى شعر بشيء ثقيل يهبط على رأسه فسقط على وجهه وغاب عن الوجود.

* * *

الفصل العاشر

كانت السيدات يلعبن الورق، وعادت السيدة سبروت إلى طاولة اللعب وهي تقول حانقة: لقد قدّموا موعد تجربة الغارة الجوّية مرة ثانية وستتم الليلة!

وكانت السيدة منتون تقول: أعطني ورقتين. أنا لا أستطيع الاعتماد على الحظّ وحده؛ فالورق يحتاج إلى حظّ وفنّ.

قالت توبنس: ورقة واحدة؟

وفجأة قالت السيدة كايلي: معذرة، أظن أن السيد كايلي بحاجة إليّ، فيُخيّل إليّ أن كتابه سقط منه أو أنه سقط من على مقعده؛ فقد سمعت شيئاً يسقط.

وبدأت الباقيات يتفكّهن بالحديث عنها وعن زوجها، ثم سكتن لحظة وأخيراً قالت السيدة منتون: أنا لم أرَ شيلا الليلة. ترى أين ذهبَت؟

فقالت السيدة سبروت: لقد ذهبَت إلى دار العرض.

فسألت توبنس: وأين السيدة برينا؟

فأجابت السيدة منتون: سمعتها تقول إنها ذاهبة إلى حجرتها لمراجعة الحسابات. ما أصعب مراجعة الحسابات!

فقالت السيدة سبروت: لا أظن أنها تراجع الحسابات؛ فقد رأيتها تمرّ بالردهة وأنا أتحدّث بالهاتف منذ بُرهة، وكانت تصعد لاهثة إلى الطابق الثاني، وقد رمقَتني بنظرة غريبة لم أفهمها!

ثم دخلت السيدة برينا فاتجهن إليها بأبصارهنّ، وسألتها السيدة منتون قائلة: خيراً. هل كنت تتنزهين في الخارج؟

- لا، أنا لم أخرج.

- لقد سمعت السيدة سبروت تقول إنك في طريقك إلى النزهة فدهشت.

- لقد خرجت لأرى حال الجوّ خارج المنزل.

ودخلت السيدة أوروك بعد لحظة وقالت: بوكر أم بريدج؟

فنظرن جميعاً إليها، وسألتها السيدة سبروت: ما هذا الذي أراه في يدك؟

- هذه مطرقة وجدتها بجوار الدرَج، لا بدّ أن أحداً قد نسيها هناك.

وبعد قليل عاد بلتشلي من دار العرض وقد أخذ ينتقد الفيلم الذي رآه، ثم شعر الجميع أن الوقت قد تأخّر فانصرف

كل واحد إلى غرفته.

وفي الصباح اجتمعوا على مائدة الإفطار فقال الميجور بلتشلي: هذا أمر غريب حقاً! أنا لا أحبّ الجري وراء الإشاعات أو الإساءة لسُمعة أحد ولكن السيد ميدوز...

- ماذا حدث له؟

- لم يَعُدْ إلى المنزل في الليلة الفائتة، بل هو لم يعُدْ حتى الآن.

فقالت توبنس بدهشة: ماذا تقول؟!

فأجاب الميجور وهو يرمق توبنس بنظرة لها معناها، نظرة الرجل الذي يدرك شعور الأرملة الجامحة: من الواضح أن السيد ميدوز حنّ إلى سهرات الشباب، ومع ذلك فقد ضايق غيابه السيدة برينا.

وقالت السيدة منتون: مَن يدري؟ لعله أُصيب بحادثة في أثناء تجربة الغارة في الليلة الماضية.

- حادثة؟ مستحيل.

ثم قال كأنما يوجّه كلامه إلى السيدة بلنكنسوب: إنها الطبيعة البشرية التي تدفع الكهول دائماً إلى التغيّب عن منازلهم.

- لست أرى السيد ميدوز من ذلك النوع من الرجال، وفي ظنّي أن حادثاً قد وقع له.

فقال الميجور: لو صُدم بسيارة مثلاً أو بشيء من هذا القبيل لعلمنا ذلك.

- لعلّهم نقلوه إلى أحد المستشفيات.

ولم تحتمل توبنس الحديث أكثر من ذلك فانسحبت من الغرفة، وابتسم الميجور قائلاً: مسكينة الأرملة التي تجري وراء كهل لا يهتمّ بها. صدَق ديكنز إذ قال: احترس من الكهول العُزّاب فلا رجاء فيهم.

والواقع أن توبنس أقلقها غياب تومي غير المتوقّع، ولكنها حاولت أن تُطمْئن نفسها بأنه قد يكون عثر على أثر هامّ وأخذ يتتبعه دون أن يجد فرصة للاتصال بها، وكان كلاهما يقدّر صعوبة اتصال أحدهما بالآخر ويقدّر احتمال غياب أحدهما المفاجئ، فاتفقا على وسائل للتفاهم في مثل تلك الحالات. ثم إن غياب السيدة برينا خارج المنزل في الليلة الماضية -كما قالت السيدة سبروت ورغم أنها أنكرته- يحوي معاني كثيرة، لعل تومي أحسّ بها فتتبعها ليكتشف المهمّة الخفية التي خرجَت من أجلها، ولكن كان عليه أن يتصل بها بالوسائل المتفَق عليها أو يسرع بالعودة.

ومرّ اليوم طبيعياً ولم يُسمَع عن السيد ميدوز أيّ خبر. وفي المساء وبعد إلحاح جميع النزلاء قبلت السيدة برينا أن تتصل بالشرطة، فحضر أحد رجال الشرطة وسأل عن المعلومات التي يعرفها النزلاء عن زميلهم الغائب ودوّنها في مفكّرته، ثم قام بتحرّيات عرف منها أن السيد ميدوز ترك

منزل الكوماندور هايدوك في العاشرة والنصف مساء، ومن هناك سار مع السيد وولتروز والدكتور كيرتز حتى أبواب سان سوسي ثم ودّعهما ودخل حديقة المنزل، ومنذ تلك اللحظة لم يظهر السيد ميدوز.

ورأت توبنس خلال هذه المعلومات أن هناك احتمالين: الأوّل أن يكون قد رأى السيدة برينا خارجة في تلك الساعة المتأخّرة فتبعها حتى رآها تقابل شخصاً غريباً فتبع هذا الأخير وتركها هي لأنه رآها تعود إلى سان سوسي، وفي هذه الحالة يرجّح أن يكون على قيد الحياة وأن تحرّيات الشرطة ستربك أعماله. أمّا الاحتمال الثاني فقد صوّرته لها الحالة الغريبة التي كانت عليها السيدة برينا من ناحية، ثم دخول السيدة أوروك وفي يدها تلك المطرقة الثقيلة التي لم تجد تعليلاً مقبولاً للعثور عليها في تلك الساعة من الليل، ثم إن تحديد الوقت كان مستحيلاً لأنه لم تهتمّ بمعرفته واحدة من اللاّئي كنّ يلعبن الورق، كما أن السيدة برينا أنكرَت أنها خرجت إلاّ لترى حالة الجوّ خارج المنزل، ثم تلك الملاحظة التي أبدتها السيدة سبروت من أنها رأتها تجري لاهثة وتصعد إلى الطابق الثاني من المنزل.

وقد حاولت توبنس أن تتأكّد من الساعة التي حدث فيها كل ذلك من الأخريات ولكنهن لم يُجِبنَ بما يشفي الغليل. ثم إن هناك احتمالات أخرى، فقد كانَ هناك ثلاثة آخرون من سكّان سان سوسي في الخارج في الوقت الذي عاد تومي فيه، فالميجور بلتشلي كان في دار العرض وحيداً، وإن الطريقة

التي اتّبعها في حكاية قصّة الفيلم كلّه قد يفسّر على أنه كان يُعِدّ لنفسه مَخرَجاً إذا وُضع في موقف الاتهام. ثم إن هناك السيد كايلي الذي دار حول الحديقة دون سبب معقول في ذلك الوقت بالذات ولأوّل مرّة منذ سكن سان سوسي، وكذلك السيدة أوروك نفسها والمطرقة الضخمة التي كانت تلوّح بها في يدها بلا مناسبة.

* * *

- أيتها الجميلة، ما لي أراك اليوم على غير ما عهدت؟ إنه انشغال البال بالتأكيد. ترى ما الذي يشغل بالك؟

ابتسمَت ديبورا برسفورد لمحدّثها الشاب توني مارسدون؛ فقد كانت الفتاة تميل إليه لذكائه المفرط حتى اعتبره الرؤساء أبرع عامل في إدارة الشفرة. وكانت ديبورا في نفس الوقت تحبّ عملها الذي يجبرها على تركيز تفكيرها فيه، ورغم أنه عمل متعِب إلاّ أنه لذيذ، تشعر مَن تشغله بأنها ذات أهمّية وليست كتلك الممرّضات اللائي يتسكّعن في ردهات المستشفيات ينتظرن حالة جديدة من وقت إلى آخر.

وعاد توني مارسدون يسألها: ما الذي تفكّرين فيه أيتها الجميلة؟

- لا شيء، هي مسائل عائلية لا أكثر.

- العائلات مرهِقة دائماً. هل لي أن أستفسر؟

- ليس في المسألة سِرّ، فأنا قلقة على والدتي.

- لماذا؟ هل هي مريضة؟

- لا، لقد أرسلَت لي خطاباً قالت فيه إنها ذهبَت لتقيم مع عمّة مسنّة لي في كورنوول لتساعدها وتمرّضها، وقد كنت في غاية الاطمئنان عندما وصلني منها خطاب منذ يومين.

- إذن ماذا غيّر الأحوال؟

- المسألة أنني كلّفت زميلنا شارل (وكان قد سُمح له بإجازة لزيارة أهله في كورنوول) أن يمرّ بمنزل العمّة ويزورهم فذهب ولكنه لم يجد والدتي هناك. أجل، بل لم تذهب إلى هناك أصلاً!

- أمر غريب حقاً! وأين والدك؟

- أبي؟ لقد التحق بعمل في اسكتلندا من تلك الأعمال الكتابية، الملفات والأوراق وما شابه ذلك.

- ربما ذهبَت والدتك لتلحق به هناك.

- لا يمكن؛ فهو يعمل في إحدى المناطق التي يمتنع دخول الزوجات إليها.

- إذن لا بدّ أن تكون قد ذهبت إلى مكان ما.

- أجل، ولكن كل خطاباتها تتحدّث فيها عن العمّة المسنّة والحديقة و...

- أجل، أجل، لا شك أنها كانت تريدك أن تعتقدي أنها

هناك في حين هي... أعني...

- لا، لا، مستحيل، إذا كنتَ تعتقد أن أمّي من أولئك النساء اللائي لا يجدن غضاضة في الاتصال برجل آخر فأنت مخطئ. مستحيل أن يحدث هذا.

- آسف جداً، فلم أكن أعني ذلك.

- الغريب في الموضوع أن شخصاً ما قال لي أمس إنه رآها في ليهامتن. ولكن خطاباتها من كورنوول... أنا لا أستطيع أن أفهم!

وتوقّف توني عن إشعال لفافة التبغ وترك عود الثقاب يحترق دون أن يهتمّ به وصاح بدهشة: ليهامتن؟!

- أجل، وهو آخر مكان يفكّر فيه الإنسان... ضبّاط متقاعدون وأرامل يُستشفون.

ورمى الشاب بعود الثقاب الذي كاد يحرق أصابعه، ثم عاد فأشعل عوداً آخراً وسألها: ماذا كانت والدتك تعمل في الحرب الماضية؟

- كانت تعمل أحياناً في التمريض، وأحياناً أخرى تقود سيارة أحد الجنرالات على ما أظنّ.

- ظننت أنها كانت مثلما أنت الآن، في إدارة المخابرات.

- مخابرات؟ أظن أنها قامت في وقت من الأوقات

بنقل بعض الوراق الهامّة فاعتبرَت ذلك عملاً جبّاراً وبالغت في أهمّيته!

* * *

في اليوم التالي عندما عادت ديبورا إلى غرفتها لاحظت أن حالة الغرفة تنبئ بأن أشخاصاً عبثوا بها، فنادت صاحبة المنزل وسألتها عمّا حدث وعن الصورة الكبيرة التي كانت تزيّن بها طاولة الزينة، ولكن السيدة قالت إنها لم ترَها وأظهرت أسفها وقالت: ربما تعلم الخادمة شيئاً عمّا حدث.

ولما سُئلت الخادمة أنكرت معرفتها بأيّ شيء وقالت: ربما كان الرجل الذي أتى ليصلح صنابير الغاز هو الذي عبث بالغرفة.

ولكن ديبورا لم تتصوّر أن موظّفاً بشركة الغاز يهتمّ بصورة سيّدة في وسط العمر، وشكّت ديبورا في أن تكون الخادمة قد كسرت إطار الصورة وخوفاً من المتاعب أخفتها نهائياً، ولم تُرد ديبورا أن تثير مشكلات جديدة؛ ففي وسعها أن تطلب منَ أمّها إرسال صورة أخرى بلا شك، ومع ذلك فقد كانت قلقة على أمّها وخصوصاً بعدما أشار صديقها توني إلى احتمال اتصالها بشخص آخر.

* * *

الفصل الحادي عشر

كان الدور على توبنس لمقابلة ذلك البحّار المسنّ الذي يصيد السمك بصنارته، وكانت ترجو أن يكون السيد غرانت على علم بأسباب غياب زوجها ولكنّ أملها انهار تماماً؛ فقد علمَت منه أن أخبار تومي انقطعت عنه منذ وقت طويل فقالت توبنس وهي تبذل جهداً كبيراً لتجعل نغمات صوتها تبدو عملية: لا أظن أن هناك من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أنه أُصيب بمكروه.

- لا، لا أظن، ولكن لنفرض جدلاً أنه أصيب، فماذا عنك أنت؟

- أنا؟ سأستمرّ طبعاً.

- هذا ما أريد أن أسمعه، ولديك وقت طويل بعد الانتصار في المعركة تبكين فيه، أمّا الآن فنحن في وسطها والوقت قصير، ثم لا تنسي أن نبأ صغيراً أبلغتماه إلينا ثبت أنه صحيح، فكلمة «الرابع» عُرف أنها ترمز إلى اليوم الرابع من الشهر القادم، وهو اليوم الذي حدّده العدوّ لغزو البلاد.

- أمتأكّد أنت؟

- نعم، اليوم الرابع هو يوم الغزو، أمّا تلك الغارات المتتالية فما هي إلاّ اختبار استحكاماتنا ومقدرتنا على المقاومة.

- ولكن ما دمتم تعلمون هذا كلّه...

- نحن نعلم أن يوم الغزو قد تحدّد، كما نعلم في أيّ مكان سيقع على وجه التقريب، ونحن على أتمّ الاستعداد لهم، ولكن ما يقضّ مضاجعنا هو القصّة القديمة، قصّة حصان طروادة والرجال الذين يعيشون في جوفه، فهؤلاء هم الخطر الأكبر لأنهم يعرفون ما نعرف من أسرار الدولة الحربية، وهم الذين يستطيعون تسليم العدوّ مفاتيح القلعة ويكفي عشرة منهم يوزَّعون في مراكز هامّة لتحطيم كل تنظيماتنا وكشفها للألمان، ومن ثَم ترَين أن ما نحتاج إليه هو الكشف عنهم.

- ما أقسى شعوري بعجزي وعدم خبرتي!

- لا عليك، فلدينا الكثير من الخبراء يعملون ما وسعهم العمل، ولكن الخوَنة الذين يندسّون وسطهم يجعلوننا لا ندري في مَن نثق وفي من لا نثق.

- ألا تستطيعون تعيين بعضهم لمراقبة السيدة برينا؟

- لقد قمنا بذلك فعلاً وعلمنا أن لها نزعة نازية، ولكن لم نصل بعدُ إلى ما يُثبِت إدانتها. فأرجو أن تستمرّي في عملك بأقصى ما تستطيعين من حذق وحيطة.

- بقي نحو أسبوع على ذلك الموعد، أعني اليوم الرابع.

- أجل، أسبوع بالضبط.

- إذن لا بدّ لنا من عمل شيء ما، وأعني أنا وتومي؛ فأنا ما زلت أعتقد أنه وراء أثر ما. وكم أودّ لو أستطيع أن...

وقرّرَت في نفسها خطّة جديدة للهجوم.

* * *

- ألبرت، يجب أن أغيّر الوسائل التي اتبعتُها حتى الآن.

- ولكن العدوّ لم يعرفك حتى الآن يا سيدتي، ويكفي أنه اكتشف السيد برسفورد فيما أظنّ.

- لم يبقَ أمامنا وقت نضيعه، سأحاول أن أكشف نفسي وعليك أنتَ أن تراقبني. ترى ماذا تستطيع أن تفعل حيال العدوّ في اللحظة التي يضع فيها يده عليّ؟

- لا أفهم ما تعنين.

- سأكتب خطاباً وأدّعي أنه فُقد منّي، ثم أقيم الدنيا وأقعدها عن أهمّيته ثم أترك الفرصة للخادمة كي تجده وتضعه في مكان ظاهر، وأوّل من يتقدّم إليه يكون هو «ن» أو «م»، وأعتقد أنه سيعمل فوراً على إزاحتي من الطريق وعليكَ أن تكون يقظاً لكل ما يحدث.

- ثم أُبلغ أولي الأمر في اللحظة المناسبة فيقبضون عليه في حالة التلبّس؟

- بالضبط، وعليكَ أن تفكّر في هذا حتى صباح الغد ثم تقابلني لنتفق على الخطوات الأخيرة.

* * *

خرجت توبنس من المكتبة بعد أن اشترت كتاباً وصفوه لها بأنه كتاب شائق وإذا بها تسمع صوتاً خلفها يقول: السيدة برسفورد؟

فالتفتت في ذعر فوجدَت شاباً أسمر اللون طويل القامة علَت شفتيه ابتسامة، فقال لها: أعتقد أنك لا تعرفينني، أو على الأقلّ لا تذكرينني. لقد زُرتكم في أحد الأيام الماضية مع ديبورا.

إذن هو أحد أصدقاء ديبورا وما أكثرهم.

- أنا أنتوني مارسدون وأعمل في نفس المكتب الذي تعمل فيه ديبورا، وقد حدث أمر مؤسف.

- ما هو؟

- لقد اكتشفَت ديبورا أنك لست في كورنوول كما كانت تعتقد، وهذا أمر مؤسف حقاً بالنسبة إليك يا سيدتي على الأقلّ.

- كيف؟ وماذا خمنَت يا ترى؟

- في الواقع ديبورا لا تدري ماذا تفعلين الآن، ويُخيّل إليّ أنه من اللازم ألاّ تعلم، وأنا أقوم بعمل مشابه، حيث إنني أتحرّى عن الأشخاص الذين يميلون إلى النظام النازي، وهم كثيرون.

- الخيانة في كل مكان.

- عندما حدّثتني ديبورا عن عدم وجودك في كورنوول عملت على الحضور فوراً لتقومي من ناحيتك بترتيب الأمور لتغطية الموقف، خصوصاً وقد عرفت بعض الشيء عن النشاط الذي تقومين به وإلى أيّ حدّ هو حيوي، ولا ينبغي أن تعلم ابنتك ما تقومين به؛ ففي ذلك خطر كبير. وقد فكّرت أن تدّعي أنك اتصلت بالكابتن برسفورد في اسكتلندا أو في أيّ مكان آخر يكون فيه، ويمكنك أن تقولي إنه سمح لك بالعمل معه.

- ربما فعلت ذلك.

- أرجو ألاّ يضايقك تدخّلي فيما لا يعنيني.

- بالعكس، أنا أشكرك.

- أنا كما ترين، أميل إلى ديبورا و...

فرمقت توبنس الفتى بنظرة وفكّرت في اهتمام الشبّان بابنتها ديبورا رغم خشونة معاملتها لهم، وتصوّرَت أن هذا الشابّ لا بدّ أن يكون واحداً منهم، ثم عادت وقالت للشاب: زوجي ليس في اسكتلندا.

- أهكذا؟

- نعم، لقد كان هنا معي ولكنه اختفى فجأة.

- هذا أمر يؤسف له حقاً! هل كان وراء أثر ما؟

- نعم، ولست أظنّ أن في غيابه هذا ما يُخشى منه، كما أظن أنه سيتصل بي بوسائلنا الخاصّة إن عاجلاً أو آجلاً.

- أجل، ولا شك أنك تدركين خطورة المهمّة، فيجب أن تكوني على حذر.

- لا شك في ذلك، وأنا أفهم ما تعني.

* * *

الفصل الثاني عشر

بدأ تومي يشعر كأنما كرة نارية تسبح في عينيه بعد أن كان قد فقد الوعي مدّة لم يستطع حسابها، وتجمّع الألم مجسّماً في مركز تلك الكرة وأخذت تسبح ببطء، ثم شعر فجأة أن نواة ذلك الألم هو رأسه المحطم، ثم أخذ يفيق شيئاً فشيئاً ويعي بعض ما هو فيه، فأدرك أن أطرافه قد تجمّدَت وأنه جائع وغير قادر على تحريك شفتيه. رأسه ملقى على أرض جامدة أقرب الأشياء إلى صخر صلد، ثم بدأت ذاكرته تعود إليه شيئاً فشيئاً فتذكّر هايدوك وجهاز اللاسلكي والخادم الألماني ودخوله من أبواب سان سوسي، ثم ما حدث بعد ذلك.

وعاد يقول لنفسه: هايدوك. لقد عاد هايدوك إلى استراحة المهرّبين أمامي وأغلق الباب خلفه، ترى كيف رتّب الأمور بحيث يسبقني إلى سان سوسي وينتظرني هناك؟ هذا مستحيل؛ فلم أرَه في الطريق، إذن لا بدّ أن يكون الخادم... ولكن لا؛ فقد رأيته ينظّم المائدة استعداداً لإفطار سيّده في صباح اليوم التالي.

ولكن ذلك لا أهمية له، وإنما المهمّ أن يعلم أين هو

الآن. وكانت عيناه قد اعتادتا الظلام فرأى بصيصاً من نور ينبعث من نافذة صغيرة في أعلى المكان الذي كان فيه فأدرك أنه ملقى في قبو وأن يديه قد قُيّدتا وكذلك رجليه، كما أنه قد كُمّم بإحكام بحيث لا يُسمع له صوت، ثم بدأ يحاول تحريك أطرافه دون جدوى.

وبعد لحظات سمع صوت باب يُفتح في مكان ما خلفه، ودخل رجل يحمل مصباحاً صغيراً وضعه على الأرض، ثم خرج وعاد من جديد يحمل صينية عليها دورق به ماء وكوب وبعض الخبز والجبن، وقد عرف تومي فيه آبل دور الذي أخذ يتحسّس الربطة والكمامة ثم قال: سأنزع عنك هذه الكمامة لتأكل، وإذا بدر منك أيّ صوت سأعيد ربطها من جديد.

فحاول تومي أن يهزّ رأسه إيجاباً ولكنه لم يستطع إلاّ أن يفتح جفنيه ويغلقهما علامة على موافقته، فأخذ آبل دور ينزع عنه الكمامة ببطء واستطاع تومي بعد عدّة دقائق أن يحرك فكّيه وفمه، فأمسك آبل دور بالكوب وقرّبه من شفتيه فجرع قليلاً بصعوبة في أوّل الأمر، ثم استطاع أن يزدرد الماء ازدراداً فشعر أن حالته أصبحَت أحسن مما كانت، ثم أمسك الرجل بقطعتَي الخبز والجبن ورفعهما إلى فم تومي. واستمرّت العملية بعض الوقت، وشرب تومي أغلب ما كان في الدورق من الماء ثم سأل الرجل: وما القسم الثاني من برنامجكم؟

فلم يُجِب آبل دور، ولكنه مدّ يده إلى الكمامة فأسرع تومي قائلاً: أريد أن أقابل الكوماندور هايدوك.

فهزّ آبل دور رأسه علامة عدم الموافقة وأعاد ربط الكمامة. وهكذا ترك تومي في ظلام دامس فنام، ثم استيقظ على صوت الباب من جديد، ودخل في تلك المرة هايدوك وآبل دور معاً وأُزيلَت الكمامة والأربطة. وكان هايدوك ممسكاً بمسدّس في يده، ولم يكن تومي مطمئناً إلى نجاح الخطّة التي صمّم عليها ولكنه قال: لست أفهم معنى لكل هذا يا هايدوك! فقد اختُطفت دون أيّ مبرر!

- لا تقلق بالك؛ فالمسألة أهوَن مما تظنّ.

- هل لمجرّد كونك عضواً في إدارة المخابرات تظنّ نفسك تستطيع أن تفعل ما يحلو لك؟

- لا، لا يا ميدوز فأنتَ لم تقتنع بقصّتي كما رأيت ولا حاجة لنا للاستمرار في هذه المهزلة.

ولكن تومي لم يُظهر أية بادرة تبيّن فهمه لما يقول الكوماندور، وتمنّى في أعماق نفسه أن يكون إصراره على التغابي وسيلة تخرجه من المأزق الذي وقع فيه فقال: مع مَن تظنّ نفسك بالله عليك؟ مهما كنتَ ومهما كانت القوّات التي تخضع لك فليس من حقّك أن تعاملني هذه المعاملة!

فقال الآخر ببرود: أنت تمثّل دورك تمثيلاً بارعاً، وليس يهمّني إذا كنتَ من العاملين في إدارة المخابرات البريطانية أو أنك هاوٍ مفتون.

- لا أدري عن شيء تتحدّث!

- كفى يا ميدوز، كفى أيها اللعين! لم يبقَ لديّ من الوقت ما يسمح لي بان أعلم مَن أنت ومَن أرسلك، وليس يهمّني هذا الآن؛ والوقت ضيّق ولن أترك لك الفرصة لتبلغ مَن تريد تبليغه بما رأيت.

- لا بدّ أن الشرطة تبحث عني منذ تغيّبت.

- لقد حضر إلى هنا رجلان من رجال الشرطة في أوّل ليلة اختفيتَ فيها، وكلاهما كان صديقاً لي، وقد سألاني عن كل ما أعلم عن السيد ميدوز فأظهرت عجبي لاختفائه، وأعتقد أن أحداً منهما لا يتطرّق إلى ذهنه أدنى شكّ في أن الرجل الذي يبحث عنه صريع تحت أقدامه، ولا شك أنك لم تنسَ خروجك من هذا المنزل سليماً معافى، ولا أظن أن هناك عقلية في العالم تشكّ في وجودك عندي.

- أنت لا تستطيع أن تبقيني هنا إلى الأبد.

- لن أحتاج إلى ذلك، وقد أبقيكَ إلى مساء الغد، وهناك قارب صغير ينتظرك ببابي لتقوم فيه برحلة تستردّ فيها صحّتك إلى الأبد.

- أنا أعجب لماذا تقتلني في تلك الليلة بالذات؟!

- الجثث تفوح رائحتها في مثل هذا المكان يا عزيزي، ولذلك أجّلنا ذلك إلى حين وصول الزورق.

فهم تومي أنه على حقّ في ذلك، فعندما يصل الزورق يستطيعون قتله ونقل جثته ليقذفوا بها في البحر بعيداً عن

استراحة المهرّبين. وقال هايدوك ببرود: لقد أتيت لأسألك عمّا إذا كانت لك رغبة تودّ أن نحقّقها لك فيما بعد، فإذا أردت أن تبعث برسالة إلى صديق لك فثِقْ أننا على استعداد لإسداء هذه الخدمة.

ففهم تومي أن الرجل يحاول أن يستدرجه ليعرف شيئاً عمّن يتّصل به فأجاب: لا، وأشكرك.

ثم أشار هايدوك إلى آبل دور فقام على الفور بإعادة الأربطة والكمامة وترك الرجلان القبو بعد أن أغلقا الباب خلفهما.

* * *

شعر تومي بالأسى، لا لأنه سيموت بعد ساعات ولكن لأنه لا حيلة له في ترك أيّ دليل يشير إلى المعلومات التي حصل عليها، وفكّر في توبنس وأن غيابه لا بدّ أن يكون قد أقلقها، ولكن لن يخطر ببالها أن تشكّ في هايدوك بالذات، بل يعتقد أنها لن تشكّ في أحد على الإطلاق لأنها ستتوقّع أنه يقوم بمهمّة وسيعود منها. ثم أخذ يفكّر في الاستغاثة ولكن فمه كان مكمّماً، وفي نصف الساعة التالي حاول فكّ قيوده دون جدوى. وقدّر أن الوقت قد أضحى بعد الظهر، ولم يسمع صوتاً أو حركة فوقه فاستنتج أن مَن بالدار قد رحلوا ولعل هايدوك في ذلك الوقت يلعب الغولف في النادي. واستشاط تومي غضباً؛ إذ كيف لم يشكّ أحد في ذلك المخلوق ذي السحنة البروسية؟ يا له من بارع! أمّا هو فقد وقع في الفخّ

كالغِرّ. لو كانت توبنس تتنبّأ وتشكّ، فهي أحياناً تُلهَم... ما هذا؟

وأخذ يتسمّع إلى صوت يأتي من بعيد، صوت رجل يترنّم بلحن، ولكن ما الفائدة؟ إنه لا يستطيع أن يصدِر أيّ صوت يلفت الأنظار إليه. ثم اقترب الصوت، هذا اللحن مألوف لديه، وهو: «لو كنت أنت الفتاة الوحيدة، وكنت أنا الفتى الوحيد...». لقد غنّى هذا اللحن كثيراً في عام ١٩١٧، لكن تُرى من هو صاحب ذلك الصوت؟ وفجأة تخشّب جسد تومي واهتزّ بعنف؛ فهو يعرف صاحب ذلك الصوت، وقال في نفسه: إنه ألبرت بلا شكّ، ألبرت يسير بجوار استراحة المهرّبين بالقرب مني ولكنني لا أستطيع أن أنبس بأيّ صوت. لا، فكلّ إنسان يستطيع أن يحدِث أصواتاً وفمه مطبق، فلأجرّب ذلك.

فأخذ يموء بشكل متقطع كمن يرسل إشارة لاسلكية.

* * *

كانت حالة ألبرت بعد أن ترك توبنس على غير ما يرام فعجب من هؤلاء الألمان الذين يحيّون هتلر مئات المرات في اليوم الواحد ويسيرون بخطوة الإوزة ويدمّرون بلاد العالم بقنابلهم كأنهم طاعون يفتك بالناس فقال في نفسه: عليهم اللعنة! يجب أن يقفوا عند حدّ. وتلك السيدة برسفورد، لها عليّ أيادي بيضاء، وكذلك السيد برسفورد، فأين هو الآن؟ يجب أن أجده لها.

ثم خرج يبحث عن سيّده دون أن يرسم لنفسه خطة ما، فسار كالكلب الأمين يتشمّم رائحة سيّده، وكان قد علم أن الكابتن برسفورد قد تناول طعامه في منزل الكوماندور هايدوك في استراحة المهرّبين ويقال إنه عاد بعد ذلك إلى سان سوسي، إذن يجب عليه أن يبدأ من حيث انتهى سيّده، فوقف على أبواب سان سوسي عدّة دقائق ينظر يميناً ويساراً عسى أن يجد شيئاً يلفت النظر، ولكنه لم يجد شيئاً فاتجه صاعداً إلى قمّة التلّ متجهاً إلى استراحة المهرّبين.

ثم سار يسلّي نفسه بترديد ذلك اللحن: «لو كنت أنت الفتاة الوحيدة، وكنت أنا الفتى الوحيد...»، وتوقّف ألبرت لحظة ناظراً إلى أبواب استراحة المهرّبين وقال في نفسه: هنا تناول السيد برسفورد طعامه.

ثم دار حول المكان من بعيد فرأى الأبواب تفتح وتخرج منها سيارة رأى فيها رجلاً ضخماً يصحب معه أدوات لعب الغولف، فقال في نفسه: إذن هذا هو الكوماندور هايدوك؟

وبعد لحظة رأى رجلاً يخرج من باب الحديقة وقد أمسك بفأس في يده، ثم عاد ألبرت يترنّم باللحن مقترباً شيئاً فشيئاً من المنزل وهو يراقب الرجل الذي بدأ يفلح الحديقة، وفجأة قال ألبرت لنفسه مدهوشاً: ما هذا؟ من الواضح أن الكوماندور يربّي الخنازير! ما أغرب هذا! هذه لا يمكن أن تكون خنازير. هل هو غطيط نائم؟ ومن ينام في مثل هذا القبو، ثم إن هذا غطيط منظّم يذكّرني بشيء طال عهدي به، فما هو؟

إنه قريب الشبه بالشفرة، شفرة الاستغاثة!

وعاد يتسمّع من جديد، ثم تلفّت حوله يميناً ويساراً وركع على ركبتيه ونقر على شبّاك القبو عدّة نقرات وكأنه يجيب على تلك الإشارة.

* * *

الفصل الثالث عشر

لم تكن توبنس في حالة طبيعية عندما ذهبت إلى فراشها في المساء، ولما أصبح اليوم التالي وجدت رسالة لها فتغيّرت حالتها وفضّت الرسالة وقرأت فيها:

عزيزتي باتريشيا،

العمّة غراسيا في حالة خطيرة اليوم، وقد قرّر الأطباء أنها قاربت النهاية، فإذا أحببت أن تريها يجب أن تحضري اليوم، وإذا ركبت القطار الذي يتحرّك في العاشرة والثلث إلى محطة يارو ستجدين صديقاً معه سيارة. كان بودّي أن أكتب لك في ظروف أحسن من ذلك.

بنلوب بلين.

قرأت توبنس الخطاب ثم ظهرت على وجهها علامات الأسى، وكانت السيدة أوروك والسيدة منتون موجودتين جميعاً يتحدّثن عن أمراض أقاربهنّ. وبعد أن تناولن طعام الإفطار قامت توبنس إلى الهاتف وألغت موعدها مع حائكة الثياب وقابلت السيدة برينا وشرحت لها الموقف قائلة إنها

ستغيب عن المنزل ليلة أو اثنتين، فقابلت السيدة برينا الخبر بعبارات المواساة المعتادة في مثل تلك الظروف، وقالت: ألم تأت حتى الآن يا سيدة بلنكنسوب أية أخبار عن السيد ميدوز؟ هذا أمر في غاية الغرابة!

فقالت توبنس: لا بدّ أن يكون قد أُصيب في حادثة و...

- ولكن يا سيدة بلنكنسوب لو كان الأمر كذلك لسمعنا به، فقد مضى وقت طويل.

- إذن ماذا تفسّرين سبب غيابه؟

- لعمري لست أدري ما أقول! وأنا أوافقك تمام الموافقة على أنه لم يختفِ بمحض إرادته وإلاّ لأخبرنا على الأقلّ.

- ربما يكون قد فقد ذاكرته فجأة، فهذا أمر كثير الحدوث في هذه الأيام.

- ربما، وعلى العموم يا سيدة بلنكنسوب نحن لا نعلم كثيراً عن حقيقة السيد ميدوز، أليس كذلك؟

- ماذا تعنين؟

- في الواقع أنا لا أكاد أصدّق كل ما أسمع، ولكن...

- تصدّقين ماذا؟

- تلك القصّة التي يردّدونها.

- أية قصّة؟ أنا لم أسمع شيئاً.

- أجل، فهُم لن يقولوا لك شيئاً أنت بالذات، وقد سمعتها لأوّل مرّة من السيد كايلي، وهو كما تعلمين رجل كثير الشكوك.

- أرجوك أن تخبريني بما تعلمين.

- حسناً، إنه مجرّد افتراض. يقولون إن السيد ميدوز من عملاء الأعداء، أو بعبارة أخرى من رجال الطابور الخامس.

- لم أسمع هذا الهراء قبل الآن!

- ربما لا يكون صحيحاً، ولكنه شوهد كثيراً مع ذلك الشاب الألماني، وأظنه كان كثير التساؤل عن تقدّم العمل في المصنع الكيمائي، فاستنتج الناس أنهما كانا مشتركَين في العمل لحساب العدوّ.

- أظنّ أنك أنت شخصياً يا سيدة برينا لا تشكّين في كارل.

- أتمنى ألاّ يكون ما يقال صحيحاً، وخصوصاً أن شيلا المسكينة انفطر قلبها حزناً. ولست أدري لماذا شاءت ظروفها أن تحبّ ذلك الفتى.

- الأمور دائماً تسير على غير ما نهوى.

- أنت على حقّ في ذلك، فهكذا الدنيا أحزان وآلام.

وفجأة سمعتا صوت السيدة أوروك تقول: هل قطعت

عليكما الحديث؟

فقالت السيدة برينا: لا، إطلاقاً، لقد كنا نتحدّث عن غياب السيد ميدوز وكيف أن الشرطة لم تعثر له على أثر. لا شك أنك سمعت القصّة.

قالت السيدة أوروك: الشرطة؟ ماذا يمكننا أن ننتظر من ورائها؟ إنها لا تصلح إلا لمخالفة السيارات وتحرير المحاضر لأصحاب الكلاب غير المرخّص لها.

فسألتها توبنس عن رأيها في غياب السيد ميدوز فأجابت: لا شكّ أنك سمعت القصّة.

- قصّة أنه فاشيّ وأنه من رجال الأعداء؟ هذا هراء.

- ربما كان ذلك صحيحاً؛ فقد كنت أراقبه من أوّل الأمر وشعرت أنه ليس رجل أعمال متقاعد كما يدّعي، بل أدركت أنه أتى إلى هذا المكان لحاجة في نفسه.

فقالت توبنس: وعندما شعر بأن الشرطة وراءه اختفى، أليس كذلك؟

- ربما كان الأمر كذلك، وإلاّ فما رأيك أنت يا سيدة برينا؟

- لا أدري.

قالت توبنس: لم تقولي لنا رأيك يا سيدة أوروك.

- أنا أعتقد أن الرجل بمأمن من الخطر.

ثم صعدَت توبنس إلى غرفتها لتعدّ حقائبها فجرت نحوها بتي الصغيرة خارجة من غرفة آل كايلي وهي تصيح: بطتي، بطتي.

فردّت عليها توبنس قائلة: هل هي في الأعلى؟

فأجابت بتي: أسفل.

وفي تلك اللحظة ظهرَت السيدة سبروت فأخذت الطفلة تصيح: أخفيني، أخفيني!

فقالت السيدة سبروت: أنت لا تستطيعين أن تقومي بلعبة الاختفاء الآن.

* * *

عندما دخلت توبنس غرفتها لاحظت أن يداً عبثت بقبعاتها، فلما تلفّتت حولها في الحجرة تأكّدت أن العبث كان في كل مكان. يبدو أنهم كانوا يبحثون عن شيء لكنهم لم يجدوه.

تركَت الخطاب الذي وصلها صباح اليوم على طاولة الزينة ثم خرجت من المنزل، ونظرت في ساعتها -وكانت العاشرة- فقالت لنفسها: لا يزال هناك متّسع من الوقت ولا بدّ من النجاح.

ثم ذهبت توبنس إلى محطة يارو فوجدَت سيارة تنتظرها يقودها شابّ قال لها: تفضّلي يا سيدتي.

وبعد أن سارت السيارة مسافة قصيرة وسط الأحراش توقّفَت ونزلت توبنس فوجدت أنتوني مارسدون في انتظارها.

قال لها على الفور: برسفورد بخير، وقد خلّصناه من الأعداء بعدما وقع أسيراً في أيديهم، ولا يمكن أن تقابليه في الوقت الحاضر لأسباب خارجة عن إرادتنا، ثم إن هناك مهمّة يجب إنهاؤها.

نظرَت توبنس إلى كومة القشّ الملقاة بعيداً فسألت: ما هذا؟

- هذا أمر في غاية الخطورة، إنه بقايا مظلّة هبطت بها فتاة فقبض عليها رجالنا، وكانت ترتدي ثياب الممرّضات وعرفنا أنها مكلّفة بمهمّة سرّية.

- ثم ماذا؟

- إذا أردت فأنت تستطيعين أن تحلّي محلّها وتقومي بدورها لتكتشفي طبيعة مهمّتها.

- أنا على استعداد.

- ما أقوى أعصابك يا سيدة برسفورد!

- ماذا عليّ أن أفعل؟

- التعليمات التي معها ليست واضحة ولكننا وجدنا ورقة مكتوبة بالألمانية في جيب الفتاة جاء فيها: «دو، سيري إلى

ليبرزيارو حتى تقاطع الطريق».

ثم قال الشاب: ستسيرين في ذلك الطريق نحو خمسة أميال على الأقلّ.

- السير على الأقدام رياضة جميلة، ولكن أرجو أن يقدّم لي الدكتور بينيون طعام الغداء.

- هل تتكلّمين الألمانية يا سيدة برسفورد؟

- بضع جُمل فقط، ولكنني سأصرّ أن يكون الحديث بالإنكليزية وأقول إن تعليماتي توجب ذلك.

- أنت تخاطرين.

- هراء. مَن يتخيّل أنني بديلة لتلك التي هبطت بالمظلّة؟

- لقد حسبنا حساب كل ما قد يُنتظَر، فحجزنا الرجلين اللذَين قبضا على الممرّضة الألمانية (رغم أنهما من رجالنا) زيادة في الحيطة، والآن سنبدأ في عملية التنكّر.

بعد نصف ساعة ظهرت توبنس وقد تغيّر شكلها حيث تقدّمت بها السنّ عشر سنوات وصار فكّاها أعرض نتيجة لقطَع المطاط التي وُضعت داخل فمها لتتّخذ هيئة الممرّضة الألمانية، فقال مارسدون: ستعلمين منه بالتحديد أين ومتى وكيف سيقع الغزو؟

- لا تخشَ عليّ يا طفلي الصغير.

* * *

وقفت توبنس أمام المنزل رقم ١٤ بشارع آسال، فلاحظَت من لوحة الدكتور بينيون أنه طبيب أسنان، كما لاحظت من طرف عينيها أن مارسدون كان يراقبها من بعيد في سيارته فأدركت أن سيرها على الأقدام كانت له حكمة؛ فقد كان العدو حريصاً على عدم ركوبها في سيارة حتى لا تحدث أيّ متاعب.

وصعدت توبنس درجات المنزل حتى وجدت باب العيادة وضغطت الجرس فظهر وراء الباب وجه سيّدة إنكليزية عجوز؟

- هل الدكتور بينيون موجود؟

- هل أنت الممرّضة أيلتون؟

- نعم.

- إذن اتبعيني.

فدخلت توبنس فقالت السيدة المسنّة بعد أن أغلقت الباب: أرجو أن تنتظري ريثما أخبر الدكتور.

وانتظرت توبنس أن يفتح لها الدكتور بينيون. ترى مَن يكون؟ هل هو شخص غريب عنها أم شخص سبق أن رأته؟ وماذا يحدث لو كان الدكتور بينيون هو الشخص الذي تفكّر فيه؟ ثم فُتح الباب وخرج منه رجل لم يخطر على بال توبنس مطلقاً. لقد كان الكوماندور هايدوك.

* * *

الفصل الرابع عشر

تمالكَت توبنس أعصابها وتناست إلى حين الدور الذي استنتجت أن الكوماندور هايدوك قد لعبه في اختفاء تومي، وكان لا بدّ لها أن تتمالك أعصابها، فعليها أن تفعل المستحيل حتى لا يكتشف دورها، فوقفت على قدميها كأيّ امرأة نازية تواجه رئيسها.

- حضرت إذن؟

- نعم، أنا الممرّضة أيلتون.

فابتسم هايدوك كما لو قد سمع دعابة وقال: عظيم، عظيم. أيتها الممرّضة أيلتون، تفضّلي بالجلوس.

- أعتقد أنه عليّ أن أتلقى منك تعليمات.

- أتعلمين اليوم؟

- هو الرابع.

- إذن أنت تعلمين ذلك.

ثم عقد ما بين حاجبيه، فقالت توبنس بعد فترة سكون:

أرجو أن تحدّثني عمّا يجب عليّ أن أفعل.

- كل شيء في أوانه يا عزيزتي.

ثم قال بعد لحظة: هل سمعت عن سان سوسي.

- لا.

- ألم تسمعي بها؟

- نعم، لم أسمع بها.

ابتسم الرجل ابتسامة غريبة وقال: إذن أنت لم تسمعي عن سان سوسي! هذا يدهشني كثيراً؛ فأنا أعلم أنك كنت تقيمين هناك طوال الشهر الماضي، أليس كذلك يا سيدة بلنكنسوب؟

- أنا لا أفهم ما تعني يا دكتور بينيون؟ لقد هبطت بالمظلّة صباح اليوم.

- أنا لست الدكتور بينيون يا عزيزتي، ولكن الدكتور بينيون هو طبيبي، وقد سمح لي باستعارة عيادته لبعض الوقت.

- حقاً؟

- حقاً يا سيدة بلنكنسوب، أو لعلّك تفضّلين أن أخاطبك باسمك الحقيقي يا سيدة... برسفورد. لقد انكشفَت اللعبة أخيراً، وقال العنكبوت للذبابة: ها أنت قد وقعت في خيوطي! وأحبّ أن أنبّهك إلى نصيحة هامّة: لا تصيحي فتزعجي الجيران

لأنك ستُقتَلين قبل أن تفتحي فمك، ثم لا تنسَي أن هذه عيادة طبيب أسنان، وكثيراً ما سمع الجيران أصوات المرضى.

- يخيّل إليّ أنكَ فكّرت في كل شيء، ولكن هلاّ حسبتَ حساب أن لي أصدقاء بالخارج يعرفون أين أنا؟

- هل تفكّرين في الشاب أنتوني مارسدون؟ يؤسفني يا سيدة برسفورد أن أصارحك بأن أنتوني من أنشط الشبان الذين يعملون تحت إمرتنا، وقد استطاع بلباقته بعد أن عرف عنك كل شيء من ابنتك أن يجعلك تؤمنين بقصّة المظلّة بكل بساطة.

- لست أفهم معنى هذا.

- حقاً؟! لقد عملنا على أن يفقد أصدقاؤك أثرك إذا تتبّعوه. قد يصلون إلى محطة يارو فيعلمون أنك ركبت في سيارة مع أحد الشبّان، أما الممرّضة التي لا تشبهك من قريب أو بعيد والتي سارت على قدميها بين الساعة الواحدة والثانية في مدينة ليبرزيارو فلن يدرك أحد أن ثمة علاقة بينها وبين اختفائك.

- وماذا بعد؟

- أنا معجب بأعصابك، بل أنا شديد الإعجاب، ويحزنني استعمال الشدّة معك، ولكنني مضطرّ لأن أعلم بالضبط كل ما اكتشفت في سان سوسي. وأنا أنصحك فلعلّك تذكرين ما قد يقود إليه عنادك.

فنظرَت إليه توبنس بازدراء فاستطرد قائلاً: أجل، أنا أقدّر ما تتميّزين به من ثبات وعزم ولكن ماذا عن الوجه الآخر للصورة؟

- ماذا تعني؟

- أنا أقصد زوجك توماس برسفورد الذي كان يقيم إلى عهد قريب في سان سوسي تحت اسم السيد ميدوز والذي يقيم الآن في قبو منزلي.

- تومي! لا أصدّق ذلك.

- بل يجب أن تصدّقيه، فتومي العزيز كان ولا يزال في قبضة يدي، فإذا أجبت على أسئلتي أنقذته، أمّا إذا رفضت فستسير الأمور على النحو المرسوم لها، وهي أنه سيُقتل ويُقذَف بجثّته في أعماق اليمّ.

- ماذا تريد أن تعرف؟

- لحساب مَن تعملين؟ وما وسيلتك للاتصال بهم؟ وما المعلومات التي أبلغتها لهم حتى هذه اللحظة؟ وبعبارة أخرى كل ما تعلمين.

فهزّت توبنس كتفيها وقالت: أستطيع أن أقول لك من الأكاذيب ما يحلو لي.

- لا، أنت لا تستطيعين ذلك؛ فأنا سأبدأ بفحص كل ما تقولين. ثم لا تنسَي يا سيدتي العزيزة أنني أقدّر مشاعرك

نحو هذا العمل، ثم أنا أقدّر كل مجهوداتك أنت وزوجك، ونحن في حاجة إلى أناس من أمثالكما لبناء الدولة الجديدة التي ستقوم على أنقاض هذه الدولة الغبية.

فنظرت توبنس إليه ثم راحت تبحث عن كلمة تردّ بها عليه، فقالت دون وعي منها: أحلام سندريلا... أحلام سندريلا!

وأرادت بعبارتها التهكّمية هذه أن تشبّه أحلامَ النازيين بقصّة الأطفال التي رأت كتابها مع الطفلة بتي، ولكنها دُهشت عندما وجدت وقع هذه الكلمات على هايدوك كأنه السحر، بل إنها فزعت لِما رأته على وجهه حين قفز واقفاً محمرّ الوجه.

وفجأة رأت فيه توبنس ما رآه تومي من قبل، الضابط البروسي الفظّ الذي أخذ يسبّها باللغة الألمانية بأقبح الألفاظ ثم قال بالإنكليزية: أيتها المخبولة، أنت لا تدركين نتائج إجابتك هذه... لقد حكمت بالإعدام على زوجك وعلى نفسك!

ثم صاح بأعلى صوته: آنا.

فدخلَت المرأة التي فتحت الباب لتوبنس فأعطاها هايدوك مسدّساً وقال لها: راقبيها ولا تتردّدي في إطلاق النار إذا احتاج الأمر.

ثم خرج كالعاصفة من الباب وأغلقه وراءه، فقالت توبنس لآنا: هل ستقتلينني حقاً؟

- لا تحاولي أن تخدعيني. لقد قُتل ولدي أوثو في الحرب الماضية وكان سنّي حينئذ ثمانية وثلاثين عاماً، وقد أصبحت في الثانية والستين الآن ورغم ذلك...

وقد ذكّر وجه تلك المرأة توبنس بتلك المرأة الغريبة، واندا بولونسكا والأمومة، بل إحساس كلّ امرأة تفقد طفلها، ثم لمعَت فكرة في رأس توبنس، تلك الحكمة التي حاولت طويلاً أن تتذكّرها عن سليمان الحكيم.

وفُتح الباب ودخل الكوماندور هايدوك وقال بغضب: أين هي، أين أخفيتها؟

فحملقت فيه توبنس، فسؤاله لم يكن له معنى في نظرها لأنها لم تأخذ شيئاً ولم تُخفِ شيئاً.

قال هايدوك لآنا: اخرجي.

فسلّمته المرأة المسدّس وخرجت فجلس هايدوك على أحد المقاعد، وكان واضحاً أنه يبذل جهداً جبّاراً ليتمالك أعصابه ثم قال: لن تستطيعي الانتفاع بها؛ فأنت هنا تحت رحمتي ولديّ من الوسائل ما أحمل به الناس على الكلام، وستضطرّين تحت ضغط تلك الوسائل أن تعترفي لي بالحقيقة. ماذا فعلتِ بها؟

فرأت توبنس أن هذه فرصتها الوحيدة للمساومة لو استطاعت أن تعرف ما هي تلك التي خبأتها، فقالت بحذر: كيف عرفتَ أنها في حوزتي؟

- من خلال كلامك أيتها الغبيّة، وأنا أعلم أنها ليست معك الآن فقد فتّشناك بدقّة.

فقالت توبنس: افترض أنني أرسلتها إلى أحدهم بالبريد.

- لا تكوني غبية؛ فكل ما يُرسَل بالبريد يُفحَص. أنا واثق أنك لم ترسليها بالبريد، وهناك وسيلة وحيدة، وهي أنك خبّأتها في سان سوسي هذا الصباح قبل خروجك، وأنا سأسمح لك بثلاث دقائق لتقولي أين خبّأتها.

ثم وضع ساعته على المنضدة وقال: ثلاث دقائق يا سيدة توماس برسفورد.

وأخذَت دقات الساعة تُسمَع في الغرفة، وجلست توبنس صامتة دون أن يبدو على وجهها أيّ تغيير. وانكشف لها في تلك اللحظات كل ما كان خافياً عليها، وقال هايدوك فجأة: بقيَت لك عشر ثوان!

فأخذت تراقبه كما لو كانت في حُلم، وقد رفع مسدّسه في يده وهو يعدّ: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة...

وعندما وصل العدّ إلى ثمانية انطلقت الرصاصة فانقلب بمقعده. لم يكن قد لاحظ تحت تأثير حالته العصبية ومراقبته للساعة أن الباب كان يُفتَح ببطء، فوقفت توبنس على قدميها واتجهت مسرعة نحو الرجال الذين دخلوا من الباب وصاحت: سيد غرانت... لقد تخلّصنا الآن من «ن».

- أجل، أجل يا عزيزتي، وأنت بخير الآن.

- إذن أسرعوا؛ فليس لدينا وقت. ألديكم سيارة هنا؟

- نعم.

- هيا إلى سان سوسي حالاً قبل أن يتصّل به أحد هنا ولا يجد ردّاً.

وأخذ عدّاد السرعة في السيارة يتحرّك نحو النهاية، ولم ينطق أحد من راكبي السيارة بحرف واحد فيما عدا توبنس التي قالت: أين تومي؟

فأجابها غرانت: بخير.

وأخيراً وصلَت السيارة فقفزَت توبنس وتبعها غرانت، وأخذا يرتقيان الدرَج بسرعة جنونية فلمحت توبنس الأدراج في غرفتها مقلوبة رأساً على عقب فمرّت بها، ثم دخلت إلى غرفة آل كايلي وسارت إلى الفراش فرفعت الأغطية، ثم استدارت إلى السيد غرانت وقدّمت إليه أحد كتب الأطفال وقالت له: ها أنت تجد كل ما تريد في هذا الكتاب.

وفي تلك اللحظة سمعا صوتاً يقول: ماذا يجري هنا؟

فالتفتا نحو الباب فرأيا السيدة سبروت واقفة، فقالت توبنس: والآن أقدّم لك «م». أجل، السيدة سبروت... كان يجب أن أعرف هذا منذ حين.

* * *

الفصل الخامس عشر

جلس تومي والسيد غرانت وألبرت يحتسون القهوة وقد وقفت توبنس تقول: كان يجب أن أعرف ذلك منذ حين.

فقال تومي: حدّثينا بما عندك.

- عليك أن تبدأ أنت أولاً.

- ليس لديّ كثير، هو حادث عارض هيّأ لي الكشف عن سِرّ الجهاز اللاسلكي المخبّأ في حمّام استراحة المهرّبين، وقد خُيّل إليّ أنني خرجت بهذا السرّ، ولكن هايدوك كان أحرص عليه مني...

فقاطعته توبنس قائلة: فاتصل بالسيدة سبروت هاتفياً فانتظرَتك بباب المنزل ومعها مطرقة؛ فقد غابت عن لعب الورق ثلاث دقائق فقط، ولاحظت فعلاً أنها كانت تلهث عندما عادت، ومع ذلك فلم أشكّ فيها مطلقاً.

فقال تومي: يأتي بعد ذلك دور ألبرت، فقد اكتشف الرسالة اللاسلكية التي بعثتها إليه من أنفي فاتصل بالسيد

غرانت وحضر كلاهما في تلك الليلة، واتفقا على أن أبقى حيث أنا حتى يتاح لنا القبض على الجماعة التي وُكّل إليها أمر قتلي وقذف جثّتي في البحر.

فقال السيد غرانت: وعندما خرج هايدوك من استراحة المهرّبين احتلّ رجالي المكان.

فقالت توبنس: كنت أعني الجميع حين ارتبت في كل النزلاء، ما عدا السيدة سبروت، وعندما استمعت إلى ذلك الحديث الهاتفي عن الرابع من الشهر كان هناك ثلاثة أشخاص في المنزل ارتبت في اثنتين هما السيدة برينا والسيدة أوروك، ثم اتفقت مع ألبرت على ما يفعل. وفجأة ظهر أنتوني مارسدون على المسرح، وقد أقنعني في أوّل الأمر أنه على علاقة بابنتي ديبورا، ولكنني تذكّرت أنني لم أرَه يزورنا من قبل، ورغم أنه أظهر لي أنه يعلم كل شيء عن عملي في سان سوسي فقد صدّق أن تومي في اسكتلندا فرأيت أن ذلك من الغرابة بمكان؛ فليس هناك مَن يعلم حقيقة عملي في سان سوسي سوى السيد غرانت الذي كان قد أخبرني أن رجال الطابور الخامس منتشرون في كل مكان، فصمّمت على أن أكشف حقيقة مارسدون هذا فقلت له شيئاً عن العمّة غراسيا وصديقتي بنلوب بلين باعتبارهما من الوسائل التي يتصل بي تومي عن طريقها. وقد نجحَت الخطة؛ فقد وصلني خطاب من صديقتي بنلوب بلين المزعومة فتأكّدت أن لعبتي قد خدعَت مارسدون، ولم يكلّفني إتمام خطّتي سوى حديثي مع حائكة الثياب بالهاتف حيث تظاهرت بأنني قد ألغيت معها الموعد

المتفَق عليه. ولم يكن في الواقع حديثي هذا إلاّ مع ألبرت الذي فهم كيف يتصرّف من ناحيته، ثم سرت إلى نهاية الشوط وأنا أعلم أن السيد غرانت على علم بأنني في طريقي إلى يارو كما أخبره ألبرت.

فقال السيد غرانت: وقد أدّينا واجبنا على خير وجه؛ فقد تبعناك خطوة خطوة دون أن يشعر الأعداء حتى وصلت إلى عيادة الطبيب، وقد عرفنا كيف نحتال على تلك المرأة الألمانية فدخلنا في الوقت المناسب.

فقالت توبنس: كنت أعلم أنكم آتون، وكل ما فعلت أنني أطلت الوقت مع هايدوك. والغريب في الأمر أن المشكلة كلّها انحلّت في تلك اللحظات، فعندما قلت «أحلام سندريلا» انقلب كيان هايدوك فتبيّن لي أن ذلك لم يكن بسبب سخافة ما قلت ولكن لأن وراء تلك الكلمات سرّاً خطيراً بالنسبة إليه، ثم ما بدا على المرأة الألمانية آنا ذكّرني بما بدا على وجه واندا بولونسكا البولندية، وعندئذ تذكّرت سليمان الحكيم واكتشفت الأمر كلّه، وهو أن بتي لم تكن ابنة السيدة سبروت.

فصاحوا جميعاً: وكيف ذلك؟!

فقالت توبنس: أتذكرون المرأتين اللتين ذهبتا إلى سليمان الحكيم بطفل وكل منهما تدّعي أنه ولدها؟ لقد حكم سليمان بأن يُقسَم الطفل بينهما فرضيَت الأمّ الزائفة بذلك، ولكن الأمّ الحقيقية فضّلَت أن تأخذه الأخرى على أن تراه يُذبَح. والذي

حدث في تلك الليلة أن قَتلَت السيدة سبروت المرأة الأخرى فقُلتم جميعاً حينئذ إنها معجزة دامية، معجزة الغريزة، وقد كان من الجائز جداً أن تصاب الطفلة، والواقع أنه لو كانت الطفلة ابنة السيدة سبروت ما خاطرَت بإطلاق النار، ومعنى هذا أن بتي لم تكن ابنتها.

- ولكن كيف؟!

- لأن واندا بولونسكا هي أمّ بتي الحقيقية، وقد شعرت بسابق رؤيتي لوجهها عندما رأيتها أوّل مرّة، وكان الشبه بينها وبين بتي هو السبب في ذلك الشعور.

- يا للمسكينة! لقد سمحَت للسيدة سبروت بتبنّي طفلتها فلاقت حتفها.

- ولكن لماذا أرادت السيدة سبروت أن تتبنّى طفلة؟

- لسبب بسيط، كيلا يشكّ أحد إطلاقاً في السيدة سبروت، فلم يحدث في تاريخ الجاسوسية أن كانت هناك جاسوسة تصحب معها طفلة، ولا شكّ أنكم تذكرون أن السيدة سبروت رفضَت استدعاء الشرطة. كانت تعلم أنها رغم ما دفعت من نقود لتلك المرأة لم تستطع إرضاءها وأدركت أن الأمّ هي التي استعادت طفلتها، وخشيَت أن تكتشف الشرطة الحقيقة فعمدت إلى كتابة تلك الرسالة التي زعمَت أنها وجدتها في غرفتها ثم تحايلت على استدعاء الكوماندور ليساعدها في محنتها، ثم حدث ما تعرف. أمّا عن عبث بتي بأربطة حذائي فلا شكّ أنها كانت ترى السيدة سبروت تفعل

ذلك بواسطة الأربطة المشبعة بالسمّ، ولم يكن لكارل يد في تلك الجريمة إذّ لا بدّ أن السيدة سبروت قد رأت بتي تقلّدها في غرفتي فزيّفَت أدلّة ضدّ كارل فقُبض عليه حين وُجدَت بعض الأربطة المسمّمة في حجرته وفي معمله.

وقال السيد غرانت: وهناك فائدة أخرى من وجود الطفلة مع السيدة سبروت، حيث جعلت من أقاصيصها القديمة سجلاً لأعمال الجاسوسية وحرّمت على الطفلة أن تلعب بأشياء «قذرة». لقد كشف الأخصائيون في كتاب «أحلام سندريلا» معلومات هامة عن الأسطول كُتِبت بحبر سِريّ، وكذلك بقيّة الكتب، ولقد كان الفضل كلّه لك يا سيدتي.

وسكت السيد غرانت برهة ثم قال: بقيَت بعد ذلك مفاجأة يسرّني أن أخبركم بها، وهي أن كارل فون دينيم ليس كارل فون دينيم على الإطلاق لكنه صديق لصاحب ذلك الاسم الذي قتله النازي، ومنذ سنوات كلّفنا أحد رجالنا بمهمّة في ألمانيا فتعرّف إلى كارل فون دينيم الحقيقي وعرف أسرار عائلته، فلما قُتل كارل الحقيقي اتخذ رجلنا شخصيته وانتحل اسمه إتماماً للمهمّة المكلَّف بها، وقبل الحرب مباشرة عاد إلى إنكلترا والتحق بالعمل في معمل الكيمياء منتحلاً شخصية كارل فون دينيم إتماماً لمهمّتنا، وقد علمَت شيلا أخيراً وقبلَت أن تتزوّج به عندما طلب يدها.

* * *

(تمت)